العنوان:	الغزوات البحرية الإسلامية لجنوبي فرنسا "120-276 هـ / 737-889 م."
المصدر:	حولية سيمنار التاريخ الإسلامي والوسيط
الناشر:	الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
المؤلف الرئيسي:	بشير، عبدالرحمن
المجلد/العدد:	ع5
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2017
الصفحات:	53 - 90
رقم MD:	1082312
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التاريخ الإسلامي، الغزوات البحرية، المصادر التاريخية، فرنسا
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/1082312

الغَزَواتُ البَحرِيَّةُ الإسْلامِيَّةُ لجَنُوبِي فَرَنْسَا
(١٢٠-٢٧٦هـ/٧٣٧-٨٨٩م)

عبد الرحمن بشير*

تتناولُ هذه الدِّرَاسَةُ فترَةٍ تَاريخيَّةٍ مُهمَّةٍ من تاريخِ المُسْلِمينَ في مَنْطِقَةِ السَّوَاحلِ الشَّرقِيَّةِ الجَنوبيَّةِ لأُورُوبا الغربيَّةِ الَّتي تمتدُّ مِنْ المَوَانئ الأندلسيَّةِ في شَرْقِ الأندلُسِ حتَّى جُنْوَةَ في شَمَالِ غَرْبِ إيطاليا ، فقد أَفْرَزَ التَّدَافُعُ بين قُوَّةِ المسلمين وسُكَّانِ هذه المَنَاطِقِ واقِعًا مَلْموسًا على الأرضِ ، انتهى بإقامَةِ قاعِدَةٍ للمُسلِمين في مَوْقِعٍ مُتقدِّمٍ على سَاحِلِ المتوسِّطِ جنوبي فرنسا يُدْعَى فراكسنتيوم سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م ، وظلَّتْ في مرحلَةِ صِرَاعٍ حتَّى زَوَالِهَا. وتهدِفُ الدِّرَاسَةُ إلى رَصْدِ الإرهَاصَاتِ الأولى للتَّقدُّمِ البحري لمسلمي الأندلُسِ خَلْفَ جِبَالِ البَرَانِسِ حتَّى تأسيسِ فراكسنتيوم.

وتكمنُ مُشكلةُ الدِّراسَةِ في المَادَّةِ التَّاريخيَّةِ المُتَاحَةِ عن نَشَاطِاتِ هَؤُلاءِ البَحْرِيين ؛ فالنَّشَاطَاتُ الرَّسميَّةُ التي تُنفذُهَا البحريَّةُ الحكوميَّةُ تَظْهَرُ في كِتَابَاتِ المُسلمين مَصْحُوْبَةً بِمُبَالَغَاتٍ جمَّةٍ ، أمَّا نَشَاطُ البحريَّةِ الخَاصَّةِ التي قام بها مسلمو الأندلسِ ؛ وهي الأكثرُ والأعمُّ ؛ فصَمَتَتْ عنها تلك المَصَادِرُ ، وتُرِكَتْ للمَصَادِرِ الغربيَّةِ - وعلى الأخصِّ حوليَّاتِ الأدْيرَة وكِتَابَاتُ الأَسَاقِفَةِ - مُهمَّةٌ التَّأريخِ لِهَذِهِ النَّشاطَاتِ ، الأمرُ الذي يَضَعُنَا في حَيْرَةٍ أمامَ الرُّؤيَةِ الأُحاديَّةِ المُتَعصِّبَةِ للأَحْدَاثِ.

---

(١) أستاذ التاريخ الإسلامي ورئيس قسم التاريخ ، كلية الآداب جامعة الزقازيق .

لذلك فهي مُحَاوَلَةٌ محفوفَةٌ بالمَخَاطِرِ، سبَقَنَا إليها عددٌ من الرُّوَّادِ اسْتَقُوا معظمَ معلوماتِهِم مِنْ كتَابِ جوزيف رينو «الغَزَوَاتُ الإسلاميَّةُ في فرنْسَا» ,G. De Rey
Les Invasions des Sarrassins en Provence, Marseille 1878.

حَاولتْ الدِّرَاسَةُ الرُّجُوعَ إلى المَصَادِرِ الأصليَّةِ مُترجمَةً من اللاتينية إلى الإنجليزيَّةِ والفرنسيَّةِ؛ مثل حوليَّاتِ القديسِ برتن، وحوليَّاتِ دير نوفاليس وغيرها من الحوليَّاتِ الديريَّةِ، ورحلةِ الأَسْقُفِ ليو تبراند أَسْقُفِ كرمونا Liutprand of Cremona (٩٢٠-٩٧٢م) التي قامَ بها إلى القُسطنطينية كسفيرٍ للإمبراطور أوتو الأول Otto I Great ملك ألمانيا (٩٣٦-٩٦٢م) إلى الإمبراطور نقفور فوقاس الثاني (٩٦٣-٩٦٩م) في عام ٩٦٨م التي تُعَدُّ من أهمِّ المَصَادِرِ للتَّأريخِ لفراكسنتيوم، حيثُ عَاصَرَ الأسقفُ فترةً تقتربُ من نِصْفِ قرنٍ استيطَانَ المُسلمين في المِنْطَقَةِ.

أمَّا المَصَادِرُ العربيَّةُ فتحدَّثَتْ عن أعمالِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ الرَّسميَّةِ، أمَّا أعمالُ البحريَّةِ الخاصَّةِ فعكستْهَا الحوليَّاتُ الدّيريَّةُ وشكاوَى الحُكَّامِ لأُمَرَاءِ قُرطبةَ، والمُحَفِّزُ لهذِه الدِّرَاسَةِ هُوَ الغُمُوضُ الذي لفَّ العمليَّاتِ البحريَّةَ الخاصَّةَ التي تَنْعَتُهَا المَصَادِرُ الإسلاميَّةُ بالغَزْوِ والجِهَادِ مِنْ جِهَةٍ، وتَنْعَتُهَا المَصَادِرُ اللاتينيَّةُ بالقَرْصَنَةِ وأعمالِ السَّلْبِ والنَّهْبِ من جِهَةٍ أُخْرَى، وهو ما استنفرَ عددًا من الباحثين الغربيين لتَّصدِّي لهذِهِ الظَّاهِرَةِ وعَرْضِهَا وسبْرِ أَغْوَارِهَا، وَاكْتَفَتْ الدِّرَاسَاتُ العربيَّةُ ببعضِ السُّطُوْرِ التي تُمَجِّدُ بُطُولاتِهِم فَقَطْ؛ مِمَّا دَعَى أحدُ المُستشرقين وهو مانفرد وينر[1] .W Wenner Manfred أنْ يقولَ: «إنَّ العَالَمَ الإسلاميَّ لم يَعتبرْ الأحْدَاثَ والغَزَواتِ التي تَمَّتْ في أقاليمِ الألْبِ وفرنسا وشمالِ إيطاليا وجنوبِ سويسرا إلَّا مُجَرَّدَ إغَارَاتٍ صيفيَّةٍ رُوتينيَّةٍ ناجِحَةٍ، بينمَا هُنَاكَ الكثيرُ من الأحداثِ التي ترتَّبَتْ عليها ولم تَجْذِبْ انتباهَهُمْ».

---

(1) M. Wenner, «The Arab Muslim presence in medieval central Europe», *Journal of Middle East Studies,*12 (1980) p.73.

* العَرْضُ الجُغْرَافي وموانئ المنطقة

المجالُ الحيويُّ للدِّراسَةِ هُوَ مَنطقَةُ الشَّمَالِ الغربيِّ للمُتوسِّطِ، حيثُ يبدأُ مِنْ سَوَاحِلِ الأندَلُسِ الشَّرقيَّةِ على المُتوسِّطِ وجُزُرِ البليَارِ إلي جُنْوَة في شَمَال غربِ إيطاليا علي البَحْرِ اللُّورجي Liguria، وتحتوي هذه السَّواحِلُ على عددٍ من الخُلْجَانِ؛ أشهرُهَا خليجُ ليون، كَمَا تمتدُّ الدِّرَاسَةُ إلي منطقَةِ البَحْرِ التِّيراني الذي يفصِلُ بينَ جُزُرِ كورسيكا وسردنيا وغربِ إيطاليا، هَذِهِ المَنَاطِقُ شَهِدَتْ نشاطًا ملحوظًا للبحريَّةِ الإسلاميَّةِ مُنْذُ القرنِ الثَّاني الهِجْري/الثامِنِ الميلادي.

تتمتَّعُ السَّواحلُ الشَّماليَّةُ للمُتوسِّطِ بتضاريسَ مَيَّزَتْهَا عن السَّواحِلِ الجنوبيَّةِ خَاصَّةً مِنْ مرسيليا حتى إيطاليا؛ فهي سَوَاحلُ صخريَّةٌ تحتوي على مِئَاتٍ من القِمَمِ الجبليَّةِ الصخريَّةِ (جبالِ الألْبِ) التي يزيدُ ارتفاعُهَا عن ٣٠٠٠ متر مُرتفعَةً عن البحرِ، لذلك يُمْكِنُ رُؤْيَةُ الجِبَالِ جيِّدًا من عَرْضِ البَحْرِ، وتحتوي على أعدادٍ كبيرةٍ من الخُلْجَانِ كثيفَةِ الأَشْجَارِ التي تُمَكِّنُ السُّفُنَ مِنْ الاحْتِمَاءِ بِشَوَاطِئِهَا في أَوْقَاتِ الطَّقْسِ السَّيئ(١).

وَفَّرَتْ هذه البيئةُ الطَّبيعيَّةُ للسَّواحِلِ الشَّماليَّةِ الغربيَّةِ للمتوسِّطِ، فَضْلًا عن الفَرَاغِ السُّكَّاني مُنَاخًا مُنَاسِبًا لغَزْوِ المِنْطَقَةِ مُنْذُ زَمَنٍ بعيدٍ، حيثُ رَسَتْ مَرَاكِبُ الإغريقِ سنة ٦٠٠ ق.م على هَذَا السَّاحِلِ، وَأَقَامَتْ مِيْنَاءَ مرسيليا(٢)، وكذَلِكَ ضَرَبَتْ القَبَائِلُ السُّلافيَّةُ Salluvii علي جبالِ الألْبِ البحريَّةِ، وعلى سَاحِلِ البحرِ اللُّورجي منذُ قُرُونٍ قبلِ الميلادِ، حيثُ كانَتْ المنطقةُ ملاذًا لهم بِفَضْلِ تضاريسِهَا

---

(١) J. PRYOR, *Geography, and war,* studies in the maritime history of the Mediterranean 649-1571, Cambridge University, 1992, p.21.

(٢) E. SEMPLE, «The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin and Its Northern Breaches as Factors in History», *Annals of The Association of American Geographers,* Vol. 5 (1915), p.50-51.

الوَعْرَةِ وموقِعِهَا الاستراتيجيِّ ؛ مِمَّا سَهَّلَ لهم عمليَّاتُ النَّهْبِ والسَّلْبِ بَرًّا وبحرًا ، وعرقلُوا حركةُ المُرُورِ ، وقَطَعُوا الطَّريقَ على جُيوشِ الإمبراطوريَّةِ الرُّومانيَّةِ في طريقِهَا إلى مرسيليا وأسبانيا ؛ التي وَصَلَتْ إلى المنطقَةِ بِطَلَبٍ من مرسيليا[١].

أَجْبَرَ الرُّومانُ في سنة ١٢٥ ق.م هذه القبائلَ السّلافيَّةَ بعدَ صِرَاعٍ دامَ ثمانين عامًا على النُّزُوحِ مِنْ الشَّريطِ السَّاحليِّ إلى الدَّاخِلِ لِمَسافَةٍ أكثرَ مِنْ ميلٍ ؛ لفتحِ طريقٍ سريعٍ للجُيوشِ الرُّومانيَّةِ التي سادَتْ المنطقةَ آنذاك[٢] ، وهذا يُدلِّلُ علي انعدام المُقَاوَمَةِ المحليَّةِ في المنطقَةِ ؛ بسببِ الفَرَاغِ السُّكَّاني الذي سبَّبته الطَّبيعَةُ الجغرافيَّةُ للمَنْطقَةِ وسيطرةُ الغُزَاةِ ، وهَذَا يَدْحَضُ قَوْلَ البَعْضِ[٣] أنَّ الغزواتِ البحريَّةَ للمسلمين دَمَّرَتْ الوحدَةَ الثَّقافيَّةَ للمتوسِّطِ ، وأدَّتْ إلى ابتعاد المَرَاكِزِ الثَّقافيَّةِ شمالًا ، فمِنْ الوَاضِحِ أَنَّ الذي فَرَضَ ذلك هو استباحَةُ هذه السَّوَاحِلِ من جَانِبِ القُوَى الكُبْرَى وغيرها منذُ قبلِ الميلادِ ، فضْلا عن الفَرَاغِ السُّكَّاني ؛ بسببِ قَسْوَةِ الطَّبيعَةِ في جنوبِ البِلادِ.

لَعِبَتْ موانِي السَّاحِلِ الفرنسي التِّجاريَّةُ دورًا كبيرًا في النَّشاطِ الاقتصاديِّ مُنْذُ أَوَاخِرِ القَرْنِ الخَامِسِ حتَّى نِهَايَةِ القَرْنِ السَّابعِ الميلادي خلالَ العَصْرِ الميروفنجي ، حيثُ تَوَاصَلَتْ مع منظومَةِ التِّجَارَةِ الرُّومانيَّةِ الكبيرةِ المَبْنِيَةِ علي حقِّ تبادُلِ استعمالِ الموانِي والتَّعَاوُنِ بين كُلِّ دُوَلِ المتوسِّطِ ، وكانتْ موانِي البروفانس بشكلٍ خاصٍّ هي المدخلُ الرَّئيسي للتجارةِ مع الشَّرقِ[٤] ، ثُمَّ تحوَّلتْ هذه الموانِي في القرنِ الثَّامنِ والتَّاسعِ وبدايَةِ العاشِرِ إلى موانِي مَحليَّةٍ ، كانتْ التِّجَارَةُ فيها لا تلعبُ إلا دورًا

---

(١) E. Semple, «The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin», p.52.

(٢) *Ibid.*, p.52.

(٣) M. Ballan, «Fraxinetum: an Islamic frontier state in tenth-century Provence», *Journal of Medieval and Renaissance Studies,* vol.41 (2010), p.69.

(٤) F. Ganshof, «Notes sur les ports de provence du VIIIe au Xe siècle», *Revue Historique* 183, (1938), p.28.

عارضًا، وفي مساحةٍ جُغرافيَّةٍ محدودةٍ جِدًا، ويعزُو مُؤرخو الفترةِ ذلك إلى الغَزَوَاتِ الإسلاميَّةِ في المنطقَةِ[١].

يُعتبرُ ميناءُ مرسيليا أقدمَ موانيء البروفانس؛ الذي تمَّ اختيارُ موقِعِهِ بِعِنَايَةٍ من جانبِ الإغريقِ عندَ انتهاءِ تلالِ البروفانس على الجَانِبِ الشرقيِّ من مَصَبٍّ نهرِ الرُّوْنِ، بعيدًا عن تهديداتِ الفَيَضَانِ وترسُّبَاتِ الطَّمْي، وبالقُرْبِ من أرخبيلٍ يضمُ عددًا من الجُزُرِ الصَغيرةِ تحميه[٢]. وأَهَّلَ هذا الموقعُ الميناءَ للقيامِ بدورٍ كبيرٍ في العلاقَاتِ التِّجاريَّةِ في المنطقَةِ؛ خاصَّةً التِّجارةَ التي تسلكُ نَهْرَ الرُّون من وإلى شمالِ ووسطِ أوربا، حيثُ منابِعِ النَّهرِ في سويسرا الذي يخترقُ غالة إلي مصبِّهِ في الجنوب علي المتوسط لمسافة ٤٣٠ ميلًا (٥٥٠كم)[٣]، وأعطى هذا النَّهرُ أهميَّةً فريدةً من نوعها في غربِ المتوسِّطِ، حيثُ مَنَحَ سُهولةً في الاتِّصَالِ مع المَنَاطِقِ الدَّاخليَّةِ والقاريَّةِ، وأصبحَ منفذًا جنوبيًّا لضفيرةٍ كبيرةٍ من الطُّرُقِ البريَّةِ الشَّمَاليَّةِ[٤].

يلي ميناءَ مرسيليا من حيثُ الأهميَّةِ التِّجاريَّةِ في شمال ووسط أوربا ميناءُ آرل (Arles)، وهو ميناءٌ نهريٌّ مُتَّصلٍ بالبحرِ عن طريقِ دلتا الرُّون[٥] ثم أربونة (Narbonne) القريبة من البحر ويتمُّ دخولُ السُّفنِ الآتيةِ إليها عن طريقِ المُستنقعَاتِ التي تُحوطُهَا من كُلِّ جانبٍ[٦]، ثم برشلونة التي تبعد عن طركونة (Tarragone) خمسون ميلًا تقريبًا، ثم طركونة التي تبعد عن طرطوشة (Tortosa) بخمسين ميلًا تقريبًا، وهي على نحرِ البحرِ، ثُمَّ طرطوشة، وهي ميناءٌ

---

(١) *Ibid.*, p.28.

(٢) E. SEMPLE, «The Barrier Boundary of the Mediterranean Basi», pp.50-51

(٣) *Ibid.*, p.48.

(٤) *Ibid.*, p.59.

(٥) *Ibid.*, p.58.

(٦) جوزيف رينو: الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع والعاشر الميلادي، ترجمة إسماعيل العربي، بيروت - دار الحداثة بيروت، ١٩٨٤م، ٥٠.

علي نهرِ إبرة ، بينها وبين المتوسط عشرون ميلًا تقريبًا ، تتشابَهُ في ظُرُوفِهَا الجغرافيةِ مع آرل[١].

وتُوضِّحُ خريطةُ السَّاحلِ وُجودَ ثَلاثَةِ مواني في إقليمٍ واحدٍ هو البُرتاتُ ، وهو تَخْمٌ طبيعيٌّ بين شِبْهِ الجزيرةِ الأيبريَّةِ وأوربا ، حيثُ تقعُ برشلونةُ ثُمَّ طركونةُ ثُم طرطوشَةُ ، تفصل بين الموانى الثلاث مسافةٌ لا تزيدُ عن خمسين ميلًا[٢] ، ويخلُو بقيَّةُ السَّاحِلِ من برشلونةَ حتَّى جُنْوَةَ من مواني مُعتبرةٍ ، سوى مرسيليا ، أمَّا ميناءُ آرل وميناء أربونَةَ فهمَا ميناءان داخليان ، ويرجع ذلك طبيعةِ السَّاحلِ الصَّخري للمنطقةِ[٣] ، وارتبطتْ هذه الموانى بخطُوطٍ ملاحيَّةٍ ؛ فعلى سبيلِ المِثَالِ هناكَ خَطٌّ مِلاحِيٌّ يربطُ غربَ ووسطَ أوربا بالأندَلُسِ من خِلَالِ نهرِ الرُّوْنِ ، حيثُ تأتِي المَرَاكِبُ من تلك المَنَاطِقِ حتَّى آرل ، ومنها إلى المتوسِّطِ ثُمَّ برشلونة ، ومنها إلى طركونة ثم إلي طرطوشة ، وخطٌّ أخرُ من آرل إلى جُنْوَةَ ؛ تستطيعُ المراكِبُ السَّريعَةُ قَطْعَ المَسَافَةِ فيه خلالَ أَحَدَ عشرَ يومًا[٤].

ساعدتْ الظُّرُوفُ الطَّبيعيَّةُ مراكِبَ الأندلسيين الصَّغيرةَ في الوصولِ بسهولةٍ إلى مناطِقِ ساحِلِ الفِرنْجَةِ بإمكانيَّاتٍ محدودةٍ ، من خلالِ المَسَارَاتِ البحريَّةِ الضَّيِّقَةِ المُحَاذِيَةِ للشَّاطئ ، التي لا تحتاجُ إلي مراكبَ كبيرةٍ كالتي تُبحرُ في عرض البحرِ ؛ إذْ أنَ المِلاحَةَ بالقُرْبِ من السَّاحلِ تُوَفِّرُ رِحْلَةً آمِنَةً ، وهذه السَّواحِلُ مهيأةٌ بالطَّبيعةِ للمَراكبِ الخفيفةِ ذاتِ المجَاديفِ أو الشِّرَاعِ أكثرَ منها بالنِّسبَةِ للسَّوَاحِلِ الجنوبيَّةِ[٥] ،

---

(١) الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الشريف ، المتوفى ٥٨٨هـ/١١٦٢م) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٤م ، ٥٥٥، ٧٣٤.

(٢) الادريسي ، نزهة المشتاق ٥٣٨.

(٣) J. PRYOR, «Geography, and war», p.21.

(٤) F. GANSHOF, *«Notes sur les ports de Provence»*, p.33.

(٥) J. PRYOR, *«Geography, and war»*, p.21.

حيثُ اشتهرتْ طرطوشة بصناعَةِ هذه السُّفُنِ مِنْ خَشَبِ الصَّنوبَرِ المُنْتَشِرِ في جِبَالِهَا[١].

سَادَ في الحَوْضِ الغربيِّ للمُتوسِّطِ رياحٌ غيرُ مُؤثِّرَةٍ على نشاطِ البحريين، حيثُ يمكِنُ التَّغَلُّبُ على مُعْظمِ الصُعوباتِ بِسُهولَةٍ ويُسْرٍ، فيما عَدَا شهورِ الشِتاءِ؛ لتفادِي المَخَاطِرِ النَّاتِجَةِ عن انخفَاضِ الرُّؤيَةِ بالنِسبَةِ للمِلاحَةِ الشَّاطئيَّةِ، نتيجةَ تَزَايُدِ الضَّبَابِ[٢]، فإنْ داهمتهم تلك الفترة وهم في مناطقِ الغزو لجئوا إلى السَّواحِلِ والجُزُرِ غيرِ المَأْهُولَةِ، وفي الخلجان الصغيرة كثيفة الأشجار حتى تتحسَّن الظروفُ، لذلكِ نشطت الملاحةُ في الفترة من أبريل حتى سبتمبر[٣].

أخضعتْ البحريَّةُ الإسلاميَّةُ هذه الموانئ لفتراتٍ مُتفاوتةٍ ومتباينة منذ نهاية القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، ما عدا طرطوشة التي ظلَّت أولَ ميناء أندلسيٍ يلي الفرنجة حتى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، حيثُ شهدت هذه الفترة صعود ظاهرة غزو البحر أو جهاد البحر عن طريق الغارات البحرية الهجومية؛ ممَّا سيكون له أثرٌ عميقٌ طوال القرن التاسع والعاشر الميلادي، ومعظم الغزوات البحرية للمسلمين في المنطقة التي سجلتها الحوليات الديرية كانت خلال تلك الفترة، ونعتتها بالقرصنة، أما المؤرخون المسلمون فوصفوا القائمين عليها بأنهم مجاهدون يُنفِّذُون أحد أركان الدين الإسلامي[٤].

---

(١) يقدر الإدريسي المسافة مرة ب١٢ميل ٥٥٥، وأخري ب٢٠ميل، ٧٣٤.

(٢) J. PRYOR, *«Geography, and war»*, pp.87, 89.

(٣) F. GANSHOF, *«Notes sur les ports de Provence»*, p.34.

(٤) عبد الرحمن بشير: «القرصنة غربي المتوسط القرن ٢-٥هـ/٨-١١م»، الكويت ـ حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية رقم ٣٢ يونيو ٢٠١٢م، ٢٠.

* الغَزْو البَحْريُّ الإسلامِيُّ الرَّسمِيُّ

اصَّطبغ الصِّراعُ البحري بالصِّبغُةِ الدِّينيَّةِ، وأصبحَ كأَنَّهُ صراعًا بين الإسْلامِ والمسيحيَّةِ، وكانتْ اتِّفاقياتُ ومُعاهداتُ السَّلامِ بين الجانبين تُمثِّلُ مُجرَّدَ فتراتٍ عارضةً لا أكثر[١]، ويرى Manfred Wenner[٢] أنَّ هذه الغزوات كان غرضُها الأساسيُّ هو إعلاءُ القيمَةِ الدِّينيَّةِ للمُشاركين فيها، أو الجهادُ الذي يُؤدِّي إلى توسيعِ ديارِ الإسلامِ، بَيْدَ أنَّ المُشاركين حصدُوا كِميَّاتٍ كبيرةً من الغنائِمِ؛ ممَّا ينمُّ عن وجودِ دافعٍ آخرَ صار على جانبٍ كبيرٍ من الأهميَّةِ، وهو مُضاعفةُ ثَرائِهِمْ الشَّخصي، يُؤكِّدُ ذلك ـ علي سبيلِ المثالِ ـ أنَّ بعضَ اليهودِ والمسيحيين المُستعربين شاركُوا في تلك الغزَواتِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ؛ فقد كانتْ الموانيء البحريَّةُ في الأندلُسِ تضُمُّ بين سُكَّانها أعدادًا كبيرةً من أهلِ الذِّمَّةِ الذين تعاونُوا مع المسلين بغرضِ المَنْفَعَةِ وليسَ الولاءُ، وتُحدِّثنا المَصادرُ عن أعدادٍ كبيرةٍ من اليهودِ قَطَنَتْ المرية وطركونة[٣]، وهما ضمن المواني التي خرجت منها مراكبُ الغُزَاةِ.

ويُضيفُ آخرُ[٤] إلى دافعِ الجِهَادِ والثَّراءِ دافعًا آخَرَ؛ هو توفيرُ مَنفذٍ للعنَاصِرِ العربيَّةِ والبربريَّةِ المُضطربةِ في شِبْهِ الجزيرةِ الأيبريَّةِ لتوجيهِ طاقاتهم ضدَّ خُصُومهم الخارجيين، وساعدهم علي ذلك تراجُعُ السُّلطةِ المركزيَّةِ للعالَمِ الإسلاميِّ على الأطرافِ وانتشارُ فِقْهِ الجِهَادِ، ويبدو أنَّ مُعاصرةَ غزواتِ المسلمين لغزواتِ الفايكنج الاسكندفايين والمجريين في أوربا جعل المؤرخين لا يُفرِّقُون بينهم جميعًا

(١) عبد الرحمن بشير: «القرصنة» ٢٤.

(٢) M. Wenner, *«The Arab Muslim»*, p.63.

(٣) ابن حيان (ابن حيان القرطبي ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م): المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق: شالميتا، الرباط ١٩٧٩م، ٥: ٥٥٥.

(٤) M. Ballan, *«Fraxinetum»*, p.54.

باعتبارهم قراصنةً داوفعُهُم وأهدافُهم واحدةٌ؛ هي السَّلبُ والنَّهْبُ ودمارُ المَحَاصيلِ[١]، وقد يبدو أنَّ هناك تشابُهًا في بعضِ الدَّوافِعِ بالنِّسبَةِ لجماعاتِ الغزو البحريِّ الإسلاميَّة الخاصَّةِ، لكن اختلفتْ النَّتائجُ وتباينتْ؛ حيثُ تبنَّى الغُزاةُ المسلمون إقامةَ حياةٍ مُستقرَّةٍ في المَنَاطِقِ التي استهدَفُوهَا والتَّعايُشَ مع سُكَّانِهَا بخلافِ الآخرين الذين كانُوا كالجرَادِ المُنْتَشِرِ؛ يقضِي على الأخضرِ واليَابِسِ.

تكوَّنتْ بواكيرُ البحريَّةِ الأندلُسيَّةِ في إقليمِ صغيرٍ بين طركونة وطرطوشة بمبادراتٍ محليةٍ[٢]، وبدأتْ تطفُو على السَّاحةِ منذُ بدايَةِ القَرْنِ الثَّاني الهجري الثامن الميلادي، وأصبح لها دورٌ فعَّالٌ في عمليَّاتِ الفتحِ الإسلاميِّ خَلْفَ جبالِ البرانسِ، حيثُ استعانَ بها السَّمحُ بن مالك الخولاني والي الأندلس (١٠٠-١٠٣هـ/٧١٩-٧٢١م) في الدَّعمِ البحريِّ لفتح إقليم سبتمانيا Septemania[٣] عام ١٠٢هـ/٧٢١م، وكان دورُهَا هو مُهاجمَةُ مدينةِ أربونةَ عاصمةَ الإقليمِ من البحرِ؛ ممَّا ساعدَ قُواتَ السَّمحِ البريَّةَ في دخُولِ المدينةِ[٤].

فطنَ المسلمون لقيمةِ التَّقدُّمِ من البحرِ لعدمِ وُجُودِ مُقاومَةٍ، وبفضلِ قُرْبِ أربونة من البحرِ وإحاطَتِهَا بالمُستنقعَاتِ كانتْ مدينةً يَسهُلُ دخولُ السُّفُنِ الآتية من الأندلُسِ إليها[٥]، ولمَّا كانتْ أربونةُ بعيدةً عن ساحِلِ البحرِ؛ ويحتاجُ الوُصُولُ إليها

---

(١) ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية من الفتح إلي سقوط الخلافة القرطبية (٧١١-١٠٣١م)، ترجمة: علي عبد الرءوف البمبي وآخرون، القاهرة ـ المشروع القومي للترجمة ٢٠٠٠م، ٤٠٩.

(٢) أرشيبالد ر. لويس: القوي البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة: أحمد محمد عيسي، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٠م، ١٥٩-١٦٠.

(٣) شريط ساحلي يقع بين دلتا نهر الرون في الشرق وجبال البرانس علي الساحل الفرنسي للمتوسط في الغرب.

(٤) رينو: الفتوحات ٥٠.

(٥) المرجع نفسه ٥٠.

اجتيازَ المُستنقعَاتِ ، لذلك اختارَ السَّمحُ مدينةَ برشلونةَ لكي تكونَ مرفًا لمراكِبِ المسلمين ؛ لوقُوعِهَا على السَّاحلِ مُبَاشَرةً ، فضلًا عن قُرْبِهَا من مَمَرَّاتِ جبالِ البرتاتِ خاصَّةً مَمَرَّ باربنيان (Perpignan) الواصِلَ بين أربونةَ وبرشلونَةَ[١].

بدأتْ البحريَّةُ الأندلسيَّةُ عملياتِهَا المُتقدِّمَةَ علي السَّاحلِ الفرنسي ، حيثُ قاموا بغاراتٍ على البُلدانِ المجَاورةِ ، واستهدَفُوا الكَنائِسَ والأَدْيِرَةَ لِمَا تتمتَّعُ به من ثَروَاتٍ طائلَةٍ[٢] ، وعلي هذا السَاحلِ الذي يبعدُ عن غرناطةَ ومالقَةَ حوالي ألف ميل رَسَتْ المَرَاكبُ الأندلسيَّةُ دون خوفٍ أو تهديدٍ[٣] ، ومن ثَمَّ تبلورت فكرةُ غزو فراكستيوم بعد ذلك بقرنٍ ونصفٍ ؛ لأنَّهَا تعدُّ تطويرًا لعمليَّاتِ الغزوِ البحريِّ بسببِ سُهُولَةِ الإبْحَارِ في سواحِلِ الفِرنْجَةِ ، وتعدُّ أربونةَ المُحصَّنةَ من البرِّ بسببِ مَنَاعَتِهَا الطَّبيعيَّةِ[٤] ، وسهولَةِ الوُصُولِ إليها من الأندلُسِ عن طريقِ البحرِ نموذجًا كان ماثلًا أمام أحفادهم الذين غزو فراكسنتيوم ؛ إذْ ظلَّتْ أربونةَ صامدةً بفضلِ المُسَاعداتِ التي كانت تأتِيهَا بحرًا من الأندَلُسِ تُؤَدِّي واجبَهَا في تعزيزِ الفُتُوحَاتِ الإسلاميَّةِ[٥] ، وإنْ أدَّى طمُوحُ السَّمحِ وتطويرُ عمليَّاتِ الفَتْحِ في فرنسا به إلى نهايته ١٠٢هـ/٧٢١م.

واستفادَ عِنْبَسَةُ بن سُحيم الكلبي الذي خلَفَ السَّمحَ سنة ١٠٣ـ١٠٧هـ/ ٧٢١ـ٧٢٥م من إخفاقِ السَّمحِ ، وقرَّرَ الاستفادةَ من الدَّعْمِ البحريِّ بمُواصَلَةِ

---

(١) وفاء عبد الله المزروع : جهاد المسلمين خلف جبال البرتات ، رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ١٩٨٧م ، ٧٥.

(٢) رينو : الفتوحات ٥٢.

(٣) ابن الفقيه الهمداني : مختصر تاريخ البلدان ، ليدن ١٨٨٥م ، ٨٢.

(٤) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، بيروت ـ دار الحياة ١٩٦٦م ، ٥٤؛ رينو : الفتوحات ٥٠.

(٥) رينو : الفتوحات ٥٢.

عمليَّاتِ الفتحِ على ساحلِ المتوسِّطِ حتَّى وصَلَ إلى نهرِ الرُّون، لكنَّهُ اغترَّ بقوَّتِه البَرِيَّةِ، وقرَّر الدُّخُولَ إلى قلبِ التُّرابِ الفرنسيِّ، ونجحَ في الوصُولِ إلى مناطقَ قريبةٍ من باريسَ، ولكنْ أوقفَتْهُ مدينةُ سانس sens التي تقعُ جنوبَ باريسَ بثلاثين كيلو متر[١]، ولَقِيَ حَتْفَهُ غازيًا في فرنسا سنة ١٠٧هـ/٧٢٥م[٢].

حاولَ عبدُ الرحمن الغافقي (١١٢-١١٤هـ/٧٣٠-٧٣٢م) استكمالَ فُتُوحَاتِ المُسلمين في فرنسا، ولكنَّهُ أخفقَ في تُور بواتيه سنة ١١٤هـ/٧٣٢م أمامَ شارلِ مارتل، ولَقِيَ مَصْرَعَهُ في المعركَةِ[٣]، وعادتْ فُلُولُ المُسلمين إلى أربونة قاعدتهم الحَصِينَةِ، وحاولَ شارلُ مارتل استغلالَ الفُرْصَةِ والهُجُومَ على أربونة التي تَقَطَّعَتْ بها السُّبُلُ البريَّةُ بسببِ قطعِ سُكَّانِ جبالِ البرانِسِ المسيحيين الطريقَ البريَّ عَبْرَ سبتمانية إلى الأندلُسِ؛ فأرسَلَ والِي الأندلسِ عقبةُ بن الحجَّاجِ السَّلوي (ت١٢٣هـ/٧٤٠م) جيشًا كبيرًا عن طريقِ البحرِ؛ لِنَجْدَةِ وَالِيهُ على أربونة عثيمة (Athima)، حيثُ أنزلَ شارلُ مارتل هزيمةً بجيشِ المسلمين لكنَّهُ لم يستطعْ دُخُولَ المدينةِ[٤]، وظلَّتْ أربونة رأسَ جِسْرٍ للهُجُومِ على الفِرَنْجَةِ.

لم يتوقَّفْ المُسلمون أمامَ إخفاقِهم في تور بواتيه، وإنْ اتَّخذوا منحًا جديدًا؛ وهو التَّقدُّمُ البحريُّ إلى محاورَ جديدةٍ، لتطويقِ الفرنجَةِ من الجنوبِ والشَّرقِ عن

---

(١) إبراهيم علي طرخان: المسلمون في أوربا في العصور الوسطى، القاهرة - مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦م، ١٤٣-١٤٧.

(٢) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، تونس - الدار العربية للكتاب ١٩٨٣م، ١: ٤٩.

(٣) يري بوجن أولسومر أن موقعة بواتيه التي خلدت شارل مارتل أنها موقعة ثانوية لا أهمية لها لذاتها، بل أنها حلقة في سلسلة لا يمكن إدراك مغزاها الحقيقي، إلا إذا أدرجتاها في سياقها التاريخي الشامل (أسلافنا العرب، ترجمة وتعليق: محمد محفل، دمشق - منشورات وزارة الثقافة السورية ١٩٩٥م، ٧١).

(٤) رينو: الفتوحات ٧٧-٧٨.

طريقِ الجِهَادِ البحريِّ[١] ؛ ففي سنة (١١٦هـ/٧٣٤م) عَقَدَ يوسفُ أميرُ أربونة مع موروند (مورانت) دوق مارسيليا اتِّفاقَ سلامٍ حيَّدَ بموجبه مارسيليا ، وخرجَ بجيشٍ من المدينةِ وعبَرَ نهرَ الرُّون ، واستولَى على مدينةِ (آ) علىَ دلتا الرُّون ، حيثُ أمَّن ظَهْرَهُ جنوبًا ثُمَّ تقدَّمَ بجنودِهِ إلى أواسِطِ بلادِ البُروفانس حتَّى وصلَ مدينةَ آفِينيون ، وظلُّوا هناك لمدَّةِ أربعِ سنواتٍ[٢] ، الأمرُ الذي جعل شارل مارتل يقطعُ علي المسلمين تطويرَ هجومهم البحري علي ساحل الفرنجة وفي نهر الرون باستيلائه على ميناءِ مارسيليا التي يحرسُ الجانبَ الشرقيَّ لمصبِّ النَّهرِ سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م[٣].

تُحاولُ الرِّوايةُ الغربيَّةُ للأحداثِ إرجاعَ عودةِ ظُهورِ المسلمين مرَّةً أخرى في جنوبِ فرنسا وعلى سواحِلِهَا بعد معركةِ بواتيه إلى خِيَانَةِ دُوْقِ مارسيليا وآفينيون «الذي كَفَرَ بنعمة شارل مارتل النبيلِ... ومع ذلك فلم يتورع في هذه الأثناء عن تشجيع العدو مرة ثانية»[٤] ، ولم تُغفلْ الرِّوايةُ جَلْدَ الذَّاتِ عن ارتكابِ الآثَامِ ، وفسقَ القَسَاوِسَةِ ، وطمعَ النَّاسِ في أملاكِ الكنيسَةِ ؛ ممَّا عرَّضهم للغَضَبِ الإلهيِّ بعودَةِ المسلمين مرَّةً ثانيةً للمَنْطقَةِ[٥].

لم تُفلحْ مُحاولاتُ الفرنجةِ في وقفِ الهَجَمَاتِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ الرَّسميَّةِ أو الخاصَّةِ على سواحلِ فرنسا ، حيثُ كانتْ أوَّلُ غارةٍ بحريَةٍ مُتقدِّمةٍ تجاوزَتْ فيها البحريَةُ الأندلسيَّةُ ميناءَ مارسيليا على شواطيء فرنسا علي جزيرة ليرين (Le rins) في نواحي أنتيب (Antibes)[٦] ، ولكنَّ تاريخ هذه الغزوة غيرُ مُؤكَّدٍ ، فهي تقعُ بين

---

(١) وفاء المزروع : جهاد المسلمين خلف البرتات ، ٣٠٥.

(٢) أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، ٧٠، ٧٩.

(٣) المرجع نفسه ٨١.

(٤) أولسومر : أسلافنا العرب ٦٥.

(٥) المرجع نفسه ٦٧.

(٦) تقع هذه الجزيرة قبالة الريفيرا الفرنسية قرب كان .

سنة (١١٠-١٢٢هـ/٧٢٨-٧٣٩م) مِمَّا ينمُّ عن تطوُّرِ عمليَّاتِ البحريَّةِ الإسلاميَّةِ مُبكرًا في الرُّبعِ الأَوَّلِ من القَرْنِ الثَّاني الهجري، مع غيابِ أيِّ عوائِقَ بحريةٍ إفرنْجيَّةٍ، إذ ينقلُ لنا رينو أنَّ المسلمين داهمُوا الجزيرة التي كانت تحوي ديرًا كبيرًا برئاسة القديس بورقير (سمِّي الدير بأسمه بعد موته علي أيدي المسلمين) ولمَّا نزل المسلمون لم يجدوا في الدير شيئًا يُذكرُ من الأموالِ، فعاثوا فسادًا، وقتلوا مَنْ في الدير إلا أربعةً مِنْ القساوسة أسروهم، لكنهم استطاعوا الفرارَ في ميناء أجوي (Agauy) بعد أن رستْ مركبهم فيه[١].

ظلَّتْ البحريَّةُ الإسلاميَّةُ تعملُ بحريَّةٍ في المنطقةِ، مِمَّا أعطى الفُرصةَ لانسيابِ التِّجارةِ البحريَّةِ عَبْرَ ميناءِ (آ) الذي وقع على عاتقهِ استقبالُ صادراتِ الشَّمالِ الشَّرقي لأوربا المُتَّجهةِ إلى أسواقِ الشَّامِ وإفريقيا[٢]، وفي المُقابلِ كانتْ حاصلاتُ المَشرقِ تمرُّ عَبْرَ الأندلسِ، وتتوزَّعُ علي البروفانس واللانجدوك عن طريق القوافلِ القادمَةِ من بلنسية والمرية إلى الرُّون، لقد غَدَتْ مُقاطعاتُ بروفانس وأربونة وقتئذٍ من أغنى المَناطقِ في جنوبي فرنسا[٣]، ورغم قصر هذه الفترة التي نعِم فيها التجار المسلمون بالتجارة مع وادي الرون وواصلوا تجارتهم في مناطق السواحل الفرنجية، ناهيك عن فُقدانهم أربونة سنة ٧٥٩م[٤]، إلا أنَّهم حقَّقُوا أرباحًا كبيرةً[٥].

وما أنْ حلَّتْ سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م حتَّى بدأت أساطيل الأندلسيين الرسمية في المُتوسطِ الغربي الغارات المطولة ضدَّ جُزُرِ البليار التي خرجت علي بيزنطة ولجأت

---

(١) رينو: الفتوحات ٨٥-٨٦.

(٢) E. Semple, *The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin*, p.58.

(٣) محمد عباسة: «العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر»، مجلة حوليات التراث، العدد ٣، (الجزائر ٢٠٠٥م)، ١٠.

(٤) رينو: الفتوحات، ٩٤.

(٥) E. Semple, *The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin*, p.57.

إلي حماية الكارولنجيين[١]، كما هاجمت مراكبهم سردينية سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م، ولمَّا صدَّهم سكانُهَا تحوَّلُوا إلي كورسيكا، فهجم عليهم بوُرشارد فهزمهم، وفَقَدَ المسلمون ستَّةَ عشرَ مركبًا من مَرَاكبهم، واعتبر المسيحيون أنَ هذا عقاب من السماء أنزله الله علي المسلمين الذين ارتكبوا كثيرًا من أعمال القسوة[٢]، ضم شارلمان جزر البليار إلى الإمبراطورية الكارولونجية، وتخلَّتْ الجُزُرُ عن تحالُفِهَا القديمِ مع بيزنطةَ[٣]، وعقد معاهدات سلام مع المسلمين بخصوص القرصنة[٤]، ويرى بلان (Ballan) أنَّ ضمَّ جُزُرِ البليار أعطى ميزةً استراتيجيَّةً لا حدَّ لها للفرنجَةِ، وحدَّ من حريَّةِ حركَةِ الأندلسيين في غرب المتوسط، وحاصرتهم إلى حدٍّ كبيرٍ على سواحل فالينسيا وطرطوشة والمرية[٥]، ونتج عن إصلاحات شارلمان حصار الفرنجة برشلونة سنة ١٨٥هـ/٨٠١م بقيادة لويس التقي بن شارلمان، وصمد زعيمها سعدون الرعينيّ دون مدد من حكومة قرطبة[٦].

أغارت القواتَ الأموية الآتية لنجدة برشلونة علي ألبة فابتعدت عن هدفها الأساسي حتى سقطت المدينة الميناء سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م[٧] بعد تسعين سنة من حكم المسلمين[٨]؛ ممَّا أدَّى إلي إطالةِ المسافة بين أقرب موانيء الأندلس الشرقية علي البحرين الأندلسيين، وخسروا مركزا بحريًّا مُتقدِّمًا لغزو سواحل البروفانس وإيطاليا بعد خسارتهم أربونة ثم برشلونة. والجديرُ بالمُلاحظةِ أنَّ الحكومة الأموية لم

---

(١) لويس: القوي البحرية ١٦٤.

(٢) رينو: الفتوحات ١٢٥.

(٣) لويس: القوي البحرية ١٦٤.

(٤) أرسلانك تاريخ غزوات العرب ١٣٢.

(٥) M. Ballan, «*Fraxinetum*», p.39, 42.

(٦) ابن حيان: المقتبس ٢: ١١٦.

(٧) ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية ١٥١.

(٨) أرسلان: تاريخ غزوات العرب ١٢٥.

ترسل تعزيزات بحرية. واكتفت بالنجدة البرية؛ ممَّا يدلل على ضعف البحرية الرسمية.

حقَّق الملكُ بيبين ابن شارلمان وقائده بورشارد (Burchard) نجاحًا جُزئيًّا في تهدئةِ حدَّةِ الهجماتِ البحريةِ للمسلمين، لكنَّهما فشلا في استرداد كورسيكا من العرب خلالَ حملاتٍ في الفترة ما بين سنة ١٩١-١٩٥هـ/٨٠٦-٨١٠م، وفي إحدى هذه الحملات سنة ١٩١هـ/٨٠٦م فقد هادوماروس - أول كونت افرنجي لجنوه - حياته، وبقيت كورسيكا وسردينيا مناطق نفوذ للمسلمين[١]، وقد أسر المسلمون ستين قسيسًا في هذه المعركة وباعوهم في الأندلس، وافتدى شارلمان بعض هؤلاء القساوسة في وقتٍ لاحقٍ[٢].

سادَ التُّجَّارُ المسلمون منطقة وادي الرون وجنوبي فرنسا في القرن ٨-٩م وانتعش فيها الدينار الذهبي الإسلامي، بينما اكتفي الكارلنجيون بسك العملات الفضية[٣]، وما قصيدة أسقف آرل ثيودلف (Theodulfضد قضاة مدينته) علي عهد شارلمان إلا حُجَّةً بينةً على سيادة الدينار الذهبيَ الإسلامي في المنطقة بجانب العملة الفضية اللاتنية، في الوقت الذي توارت فيه عملة الغرب الذهبية ممثلة في (الدينار البيزنطي) إذ تسجل القصيدة التي تعود إلي سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م رشوة قضاة مدينته بكميات كبيرة من العملة الذهبية النفيسة منقوش عليها كلمات عربية أو رسوم لشخصيات عربية[٤]، ممَّا يقطع

---

(١) H. KRUEGER, «The Italian Cities and Arabs before 1095», *A History of Cruasades* Vol. 1,ed Setton, K., Philadelphia 1955, 43.

(٢) رينو: الفتوحات ١٢٥.

(٣) نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٤م، ١: ٢٦٣.

(٤) R. LOPES, *Mmedieval trade in the Mediterranean world,* oxford university, London 1955, pp.35-36

بالهيمنة التجارية للمسلمين في المنطقة، وأنَّها غلبت علي التعاملات الداخلية والمدفوعات المحلية على نطاقٍ واسعٍ، وبالتالي فرض ذلك نفوذًا سياسيًا بجانب النُفُوذِ الاقتصاديِّ.

ورصد المؤرخون المسلمون عمليات البحرية الرسمية وإغارتهم علي السواحل الفرنجية، منها ما هو تعضيد لمحاولات الغزو البرية ـ ذكرنا بعضها في السابق ـ ومنها ما كان غزوًا بحريًّا خالصًا؛ فعلى سبيلِ المثالِ حاولَ الأميرُ الحكم الربضي سنة ١٩٩هـ/٨١٥م استرجاع ميناء برشلونة التي سقط في يد لويس التقي سنة ١٨٨هـ/٨٠٣م[١]؛ فأرسل عمَّه عبد الله البلنسي غازيًا، وقتل الكثير من سُكَّانِها، إلا أنَّهُ لم ينجحْ في استردادِهَا[٢].

كذلك فعل الأميرُ عبد الرحمن الأوسط الذي أمر بغزو جزر البليار سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م حين نقض أهلها العهد وأضرُّوا «بِمَنْ مرَّ بهم من مراكب المسلمين»[٣] بعد فترة الهدوء التي استمرَّت لمدَّةٍ تزيد عن ثلاثين عامًا لحماية التجارة بين الأندلس وموانئ فرنسا وإيطاليا، وأجبرهم على المُطالبة بتجديد العهد في سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م[٤]، بالغ ابن حيَّان ومن سلك دربه في أعداد قطع الأسطول الأندلسي الذي غزا جزر البليار بأنه ثلاثمائة مركبٍ؛ وهو عدد كبير خاصة أنَّ البحرية الرسمية للإمارة الأموية كانت في طور التجهيز، كما أن أسطول الخليفة

---

(١) ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية، ١٥١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢: ٧٤.

(٣) ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود علي مكي، القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٥م، ٢: ١٤٤؛ يفهم من رواية ابن عذاري ان حكومة قرطبة زمن عبد الرحمن الأوسط كان لها نفوذا علي جزيرة ميورقة أكبر جزر البليار بموجب عهد من سكانِ الجزيرة؛ فلما نقضوا العهد سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٨م «فغزتهم ثلاثمائة مركب؛ فصنع الله للمسلمين جميلا، وأظفرهم بهم، وفتحوا أكثر جزائرهم»، البيان المغرب ٢: ٨٩؛ طرخان، المسلمون في أوربا ١٠٣.

(٤) ابن حيان: المقتبس ٢: ١٤٥.

الناصر الذي وحد الأندلس بلغ مائة وعشرون قطعةً[١].

تزامن مع تجديد عهد جزر البليار مع عبد الرحمن الأوسط هجوم البحرية الأندلسية علي سواحل البروفانس ، حيث يُورد برتن في أحداث سنة ٨٤٩م من حولياته قوله (مازالت البحرية الأندلسية تواصل تخريبها لسواحل البروفانس) ولم يحددْ ما إذا كانت بحرية خاصة أم رسمية ، لكن تظل المظان التاريخية ترصد متابعة وتواصل البحرية الإسلامية الرسمية لغزواتها للجنوب الفرنسي[٢]. وغزا والي سرقسطة موسي بن موسي سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م جبال البرتات وسبتمانيا ، ويعرض رينو[٣] لنصٍّ معاصر من تاريخ لانجدوك يُدلِّلُ به علي حالة الخراب والقتل التي سادت المنطقة في ذلك الوقت ، وننقل عنه (لقد خُرِّبتْ جميعُ الكنائس والأديرة ، ونُهبت جميع المدن الواقعة علي السواحل) ، ثُمَّ يتناولُ النَّصُّ السكان المتعاونين مع المسلمين (لكنه كان يوجد بينهم أيضًا قومًا لم تكنْ جذور الإيمان في نفوسهم عميقة ؛ فانضموا إلي الغزاة ، وهؤلاء أسوأ علي البلد من الغزاة أنفسهم ؛ لأنهم يعرفون مداخل البلد وأحوال أهلها) وبالنسبة لليهود جاء في سيرة القديس سانت تيودار (Sait Theodard) الذي عاش في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي رئيس أساقفة أربونة «أنَّهُ لمَّا دخل المسلمون لأول مرَّةٍ إلى لانجدوك ، انحاز اليهود إليهم وفتحوا لهم أبواب مدينة تولوز (طلوزة) » وأضاف أنَّ شارلمان عاقبهم علي خيانتهم بأن أمر بصفع يهوديٍّ أمام الملأ علي باب الكاتدرائية كل عام ممَّا يُوافق فيه أعيادَ اليهود[٤].

---

(١) ابن حيّان : المقتبس ٥: ٣١٣.

(٢) ANNALES DE SAINT-BERTIN. - ANNALES DE METZ (840-868) dans collection Des memoires (A l, Histoire De France, M. Guizot, Paris 1824, remacle.org/ bloodwolf/ historiens/ anonyme/ annales.htm, événements849

(٣) رينو : الفتوحات ١٤٦.

(٤) المرجع نفسه ٢١٨.

وتتحدَّث حوليات برتن عن استقبال شارل الأصلع لسفارة الأمير الأندلسي محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م[١] رد عليها شارل الأصلع من جانبه بسفارة في نفس العام، وعادت سفارة الأخير في العام التالي من قرطبة محملين بالكثير من الهدايا منها الإبل والخيام وفرش النوم والعديد من الأقمشة والعديد من أنواع العطر[٢]، ويري رينو[٣] أنَّ الذي سعى لهذه المصالحة هو الأمير محمد بن عبد الرحمن بسبب انشغاله في قمع ثورة ابن حفصون، ثم عاد وأردف مع أن شارل الأصلع لم يكن في وضع يسمح بمحاربته. ومن المنطقي أن يكون مَنْ يمدُّ يده ويرسل سفارة إلي خصمه هو من يطلب الهدنة.

سيطر المسلمون علي البليار سنة ٢٩٠هـ/٩٠٢م، وأضحت المفتاح الحقيقي للسيطرة الساحلية غربي المتوسط، ونقطة انطلاق الأسطول الأندلسي إلي جنوبي فرنسا، وأدَّى ذلك إلي تمكين المسلمين من الوصول شمالاً إلي خليج ليون[٤]؛ لقرب المسافة بين جزر البليار وخليج ليون؛ إذ تقدر بـ ٢٥٠ ميل، وأفضي ذلك إلي تحكم فراكسينتوم بعد تأسيسها سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م في البحر الليجوري، أمَّا صقلية وسردينيا وكورسيكا فكان البحرُ التيراني مجالاً لنفوذهم[٥]، كما أنَّ استكمال سيطرة الأغالبة علي صقلية في نفس العام أفقد الفرنجة حليفًا بحريًّا مهما وهو الأسطول البيزنطي، وأغلق أمامه مضيق مسينا المؤدِّي إلى البحر التيراني،

---

(١) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements 864.

(٢) ANNALES DE SAINT-BERTIN, événements 865، يؤرخ رينو عودة هذه السفارة بسنة ٢٥٢هـ/٨٦٦م.

(٣) رينو: الفتوحات، ١٤٧.

(٤) J. PRYOR, *«Geographyand war»*, p.91.

(٥) ينسب البحر الليجوري إلي مقاطعة ليجوريا شمال إيطاليا، وتطل عليه كل من فرنسا وإيطاليا، أما البحر التيراني فهو محصور بين الساحل الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية، وجزر كورسيكا وسردينيا وصقلية، J. Pryor, Geography and war, p.105.

وبالتَّالي تراجعت فاعلية القوى البحرية الفرنجية في غرب المتوسط وزادت أنشطة المسلمين في البروفانس[١].

وتمَّ ترجمة هذه السيطرة البحرية علي المسارات البحرية في غرب المتوسط إلى غزوات بحرية رسمية في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ؛ بمشاركةِ أسطولِ المرية سنة ٣٢١هـ/٩٣٢م، حيثُ أبحرت عشرة مراكب غربية وخمسة شواني إلي بلاد الفرنجة ؛ بقيادة سعيد بن يونس وعمرو بن مسلمة الباجي[٢]، وفي سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة، وفي سنة ٣٢٨هـ/٩٣٩م بقيادة إبراهيم بن عبد الرحمن البجاني[٣]، فضلًا عن غزوات البحرية الخاصة.

* الغَزو البحريُّ الإسلاميُّ الخاصُّ

تبلورت ظاهرةٌ جديدةٌ في الغزو البحريِّ ؛ وهي خصخصةُ الجهادِ أو الجهادُ الخاصُّ، ويُسمِّيها البعضُ ظاهرةَ الاستقلالِ البحريِّ، ابتداء من القرن الثاني والثالث الهجري/الثامن والتاسع الميلادي، وبالتَّالي تحوَّلَ الجهادُ من حملاتٍ مُوجَّهةٍ من الدَولةِ المركزيَّةِ إلى غاراتٍ مُستقلَّةٍ عن الحكومَةِ، وعلى الرَّغمِ من أنَّ هذه الغارات كانت تفتقرُ إلى تأييدِ أو شرعيَّةٍ من الحكومة، لكن اعتبرها البعض من كتاب العالم الإسلامي ممارسة لواجب ديني وهو الجهاد معتبرين أنَّ الهدف لم يكن مجرد النهب أو الإغارة، لكن لتوسيع الحكم الإسلامي في دار الحرب، وإقامة الرباط والاستيطان في هذه المناطق في نهاية المطاف[٤].

---

(١) M. BALLAN, *«Fraxinetum»*, p.49.

(٢) ابن حيان : المقتبس ٥: ٣٢٣.

(٣) المصدر نفسه ٥: ٤٥٤.

(٤) M. BALLAN, *«Fraxinetum»*, p.54.

وترجع حركات الاستقلال البحري إلي ضعف السلطة المركزية في قرطبة ؛ ففي نهاية عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ/ ٨٥٢-٨٨٦م) أسَّس مجموعةً من البحريين الأندلسيين ؛ منهم المولدون والمعاهدة ميناء في المرية جنوبي الأندلس بمباركة سكان المنطقة من عرب اليمن سنة ٢٧١هـ/ ٨٨٤م[١] ، وأعطوا لهذا الكيان الشكل الرسمي من ناحية انتخاب حكومة فيدرالية منهم متأثرين بنظام المدينة الدولة في إيطاليا[٢] إلى حدٍّ أنْ وصفها العمري[٣] بأنَّها كانتْ مملكةً مُستقلَّةً.

تصدَّرت المرية العمل البحري المستقل، وحذت حذوها رباطات الساحل الشرقي للأندلس وغزو بمراكبهم لحسابهم الخاص في جنوب فرنسا وفي البحر التيراني ، وعلى الرَّغم من تنوُّعِ أُصُولِ الأسرات البحرية المرابطة في هذه الرباطات إلي أصول عربية يمنية وبربرية وأسبانية[٤] ، إلا أنَّهم كانت تجمعهم الرَّغبةُ في العمل البحري المستقل ، وفي ظلِّ عدم وجود سلطة مركزية تنظم نشاط هذه الجماعات ؛ إلا أنَّهُ هناك ما يُوحي بأنَّ ثَمَّةَ تنسيقٌ لأنشطتها وانسجامٌ تامٌّ في تصرفاتها ؛ ممَّا أعطى انطباعًا لخصومهم والمراقبين في العصور الوسطى بأنَّهم يُشكِّلون وحدةً واحدةً مُوحَّدةَ الجَبْهَةِ[٥] لجأت إليها السلطة المركزية في قرطبة علي زمن الخليفة الناصر عندما انضمت جماعات من بجانة والمرية بمراكبهم بالانضمام إلي

---

(١) البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز ت٤٨٧هـ/١١٠٣م) : المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، بغداد ـ مكتبة المثنى د.ت ، ٦٢.

(٢) حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر المتوسط ، ١٢٤.

(٣) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (وصف افريقية والمغرب والأندلس) ، تعليق ونشر حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ـ مجلة البدر ، ١٣٤١هـ ، ٤٦.

(٤) السيد عبد العزيز سالم : «أسرات من قادة البحر الأندلسيين في العصر الإسلامي» ، ضمن بحوث إسلامية في التاريخ والحضارة ، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٩١م ، ١: ٥٩٢-٥٩٣.

(٥) M. BALLAN, *«Fraxinetum»*, p.25.

الأسطول الرسمي الذي غزا العدوة المغربية[١].

وإذا كان ضعف السلطة المركزية في قرطبة أدَّى إلي حركات الاستقلال البحري فإنَّ السّياسة المركزية التي اتَّبعها الحكمُ الربضي والأمير عبد الرحمن الأوسط لتعزيز سلطة الأمويين على الساحل الشرقي للأندلس أفضتْ أيضًا إلي تبلور هذه الظاهرة بنزوح البحارة من الأندلس إلى جنوبي فرنسا ؛ وهو ما يفسر وجود قواعد للمسلمين هناك في وقت مبكرٍ، ممَّا مهَّدَ إلي قيام فراكسينتوم[٢]، وبالتّالي فإنَّ الحالتين كرستا لظاهرة العمل البحري المستقلِّ، حيثُ استفادت المجتمعات البحرية على الساحل للأندلسي الشرقي خاصة في بجانة وطرطوشة من الوضع الفوضوي في مملكة الفرنجة وفي الأندلس؛ ممَّا سمح لهم بإعادة تأكيد استقلالهم[٣].

ساعد علي نمو هذه الظاهرة وتطورها وجودُ ملاذاتٍ بحريَّةٍ أمنةٍ علي السواحل الفرنسية خاضعة للنفوذ الإسلامي أوت إليها هذه الجماعات مثل أربونة التي مثلت قاعدة لعمليات البحرية الأندلسية الرسمية والخاصة لمدة أربعين سنة تقريبًا حتى سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م، وكذلك بعض المدن القريبة من الساحل، مثل نيم وآرل التي خضعتا لسيطرة المسلمين لبضع سنوات[٤].

لم تُفلحْ محاولات الفرنجة في إجهاض غزوات البحرية الخاصة بحاصرهم ميناء أربونة الخاضع للمسلمين، وتآمر سكانه القوط المسيحيون مع ييبين القصير والد شارلمان زعيم الفرنجة ضد المسلمين؛ الأمر الذي أدي إلي سقوط الميناء وجلاء

---

(١) ابن حيان : المقتبس ٥: ٣١٣.

(٢) M. BALLAN, *«Fraxinetum»*, p.50.

(٣) *Ibid.*, p.49.

(٤) E. SEMPLE, *«The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin»*, p.57.

المسلمين عنه[١] ، بيد أنَّهُ من المُؤكَّدِ أنْ ينخفض النشاط البحري الإسلامي الرسمي بسقوط أربونة في غرب المتوسط ، بينما ظَّلْت البحريَّةُ الخاصَّةُ تُزوالُ نشاطَهَا بصورةٍ عشوائيَّةٍ ، وعلى نطاقٍ صغيرٍ ، حيثُ هاجمَتْ سواحِلِ الفرنجة والسفن الإيطالية[٢].

ويرى أحدُ الباحثين[٣] أنَّ خروج المسلمين من أربونة كان نهاية للوجود العربي الرسمي في جنوبي فرنسا ، وآخر معاقلهم فيها ، لكنَّهُ حدَّد سنة ٧٥٠م نهاية لذلك ، بيد أنَّ المظانِ الأساسية تُؤكِّدُ أنَّ خروجهم كان سنة ٧٥٩م ، ويرى آخرون اعتمادًا علي بعض مؤرخي الأديرة بقاء بعض المسلمين بعد هذا التاريخ في دوفيني ، وفي منطقة نيس ، وفي جبال الألب التزموا الهدوء طيلة عهد بيبين وشرلمان ، وهذا ما جعل بعض المؤرخين الفرنجة يقولون أنَّ المسلمين لم يخرجوا من دوفيني حتى أوائل القرن العاشر الميلادي حتى جاءت موجة أخري من الفاتحين المسلمين ، الذين سيطروا علي البروفانس ، وأسَّسوا فراكسينتوم فزحفوا من دوفيني إلي بيمونت وسويسرا[٤] ، كما أنَّ بعض العائلات المسلمة استقرت في سهول أربونة التي خربتها الحروب واعتنقوا المسيحية كما يبدو من أسمائهم[٥].

قامتْ البحريَّةُ الخاصَّةُ بعملياتها دون وصاية أو توجيه من حكومة قرطبة ، ولم يحدْ من نشاطهم كلُّ هذه النَّجاحات التي حقَّقها الفرنجة وعملياتُ التَّأمين

---

(١) اتفق سكان المدينة القوط مع بيبين علي الغدر بالمسلمين مقابل تركهم يحكمون مدينتهم حسب القوانين القوطية ، رينو : الفتوحات ، ٩٤؛ أرسلان : تاريخ غزوات العرب ، ٥٨، طرخان : المسلمون في أوربا ١٦٨.

(٢) M. Ballan, «*Fraxinetum*», p.55.

(٣) K. Versteegh, «The Arab presence in France and Switzerland in the 10 th century», *ARAICA* XXXVII (1990), p.360.

(٤) رينو : الفتوحات ٩٤ هامش ٨٢.

(٥) المرجع نفسه ١٠٦-١٠٧.

البحريِّ، حيث قاموا بغزوات مهمة ضد مرسيليا سنة ١٥١هـ/٧٦٨م، وإيطاليا عام ١٦٢هـ/٧٧٨م[١]، وأربونة سنة ١٧٧هـ/٧٩٣م وعندما وجدوا الأخيرة محصنة أحرقوها لكنهم لم يفتحوها[٢]، وتحدثنا المصادر عن وجود أعداد بالعشرات من مماليك أربونة في بلاط الحكم الربضي ورثهم الحكم من والده هشام بن عبد الرحمن الداخل (١٧٢-١٨٠هـ/٧٨٩-٧٩٦م)[٣]، ويبدو أنَّ تلك الغزوات كانت تتم بالتحالف أو بالتَّراضي مع حُكَّام الدولة البيزنطية ضد أعدائهم الفرنجة[٤].

صادف ذلك انتقال السلطة في الأندلس إلي الأمويين وانشغالهم بتثبيت حكمهم فيها، ولم يلتفت الحكام الأوائل إلي البحرية إلا في عهد عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦هـ/٨٢٢م - ٢٣٨هـ/٨٥٢م الذي أولاها عنايةً، وغزا بأسطولٍ رسميٍّ جزرَ البليار[٥]، كما اهتمَّت الفرنجةُ بالدِّفاعاتِ البحريَّةِ عندما تولَّى شارلمان الحكم ٧٦٨-٨١٤م حتَّى يَحدُّوا من نشاط المسلمين والنورمانديين البحري في جنوب فرنسا؛ فأمر شارلمان ببناء البروج والحصون في السواحل وعند مَصَابِّ الأنهار، وأنشأ الأساطيل، وأعاد الدفاعات الساحلية للدولة الكارولوجية من أربونة حتى روما، واتَّخذ إجراءاتٍ خاصَّةً؛ لحماية شواطئ أربونة وسبتمانيا المُتاخِمَةِ للأندلس[٦].

---

(١) لويس: القوي البحرية ١٥٩-١٦٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢: ٦٤.

(٣) ابن حيان: المقتبس ١٥٢.

(٤) لويس: القوي البحرية ١٥٩-١٦٠.

(٥) ابن حيان: المقتبس ٢: ١٤٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب ٢: ٨٩؛ طرخان: المسلمون في أوربا، ١٠٣.

(٦) حسين مؤنس: «المسلمون في حوض البحر المتوسط إلي الحروب الصليبية»، المجلة المصرية التاريخية، مجلد ٤ لسنة ١٩٥٢م، ١٢١.

وحَسْبَ حوليَّاتِ المملكةِ الفرنجيَّةِ خلال أحداث سنة ٨٠٩م؛ فإنَّ مُسلمي الأندلس نزلوا كورسيكا، ونهبوا بعض الأماكن في يوم السبت المقدس عيد الفصح the Holy Saturday of Easter ولم ينجُ إلَّا الأسقُفُ وبعض كبارِ السِّنِّ والمُعوَّقين، فكان ردُّ الملك لويس التقي أن حاصر ميناء طرطوشة الذي يقع علي صفة نهر الإبرو، لكنَّهُ رفع الحصار وعاد إلى بوردو[١].

وفي العام التالي ٨١٠م أغار مسلمو أسبانيا بأسطولٍ كبيرٍ ورسوا علي سردينية، وبعد ذلك أبحروا إلي كورسيكا ولم يجدوا في الأخيرة أيَّ مُقاومةٍ التي ما فتئت تلمم جراحها من اعتداءاتهم في العام السابق، وبالتالي أخضعوا أغلب الجزيرة[٢]، وأعادوا الكرة في سنة ٨١٣م عليها، وعندما هموا بالعودة نصبَ لهم الكونت أمبورياس (Amporias) كمينًا غيرَ بعيدٍ عن مدينة بيربينيان الحالية؛ فاستولى علي ثمانيةٍ من مراكبهم التي كانت تحمل خمسمائة أسير من الجزيرة، ولكي ينتقموا لِمَا نالهم في هذه المعركة اجتاح المسلمون شواطئ نيس وولاية بروفانس وسواحل إيطاليا الشمالية الغربية[٣]، وتُشيرُ الدلائلُ إلى أنَّ طائفةً من المسلمين استقرَّت في مدينة نيس، ولا يزال أحدُ أحياء المدينة يحمل اسم حي المسلمين (Canton des Sarrazis)[٤].

حاول شارلمان أن يحرم البحرية الإسلامية الرسمية والخاصة من مناطق ارتكاز هامة متقدمة علي الساحل بعد سقوط برشلونة؛ ففي عام ١٩٣هـ/٨٠٨م غزا طركونة التي دانت له، ثم اتجه في نفس العام إلي طرطوشة لكنه فشل في

---

(١) *Annals of the Kingdom of the Franks*, Translated Sources, by P.D. King (Kendal, 1987), événements 809.

(٢) *Annals of the Kingdom of the Franks*, événements 810.

(٣) رينو: الفتوحات، ١٢٦، وتقع بيربينيان بين البحر والجبل في جنوب فرنسا بالقرب من الأندلس.

(٤) المرجع نفسه، ١٦٩.

محاولته[١]، وظلَّت طرطوشة حتى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م تحت حكم المسلمين عندما استولت عليها مملكة أراجون، أمَّا طركونة فكما يقول بروفنسال[٢] «فقد تعاورتها خلال نفس الفترة حملات من الجانبين ووقعت في أيدي المسلمين مرات، وفي أيدي المسيحيين مرات أُخرى، وما فتئت أن عادت للمسلمين حيث خرج منها سنة ٢٠٦هـ/٨٢٠م أسطولًا لغزو سردينية، قابله الأسطول المسيحي الذي مُنِيَ بغرقِ ثلاثةٍ من مراكبه، وحرقِ عددٍ آخرَ[٣].

هدأت الأنشطة البحرية التي يقوم بها المسلمون في غرب المتوسط فيما بين ٨١٥-٨٣٨م لم يكن ذلك سببًا في قوة الدفاعات البحْرية الكارلونجية، لكن أيضًا كان لديهم الكثير ما يشغلهم بسبب الوضع السياسي الداخلي في الأندلس والصراع علي السلطة زمن الأمير الأموي الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م)[٤]، حيث اندلع تمرُّدٌ في الضَّاحية الجنوبية من قرطبة تحالف فيه الأسبان والقوط والمسلمين مع الفقهاء ضدَّ حكومة قرطبة؛ هذه الفتنة هدَّدت الوجود الأموي في قرطبة بحربٍ أهليَّةٍ[٥].

---

(١) ابن حيان: المقتبس ٢: ١٣١-١٣٢.

(٢) ليفي بروفنسال: تاريخ أسبانيا الإسلامية ١٥٢.

(٣) رينو: الفتوحات ١٣١.

(٤) نازع أعمام الحكم ابن أخيهم السلطة، راجع، ابن حيان: المقتبس ٢: ٩٣-١٠١.

(٥) أطلق علي هذا التمرد ثورة الربض، وامتدت علي ثلاث مراحل بأوقات مختلفة (١٨٩هـ/٨٠٤م، ١٩٠هـ/ ٨٠٥م، ٢٠٢هـ/ ٨١٧م) (ابن حيان: المقتبس ٢: ١٢٣، ١٢٧، ١٤٠-١٤٢) لكنها تكمل بعضها بعضا، ومن أهم أسبابها هو التفرقة العنصرية والتعصب للعرب خاصة الأمويين (محمد خالد مصطفي المؤمني: «الصراع بين الدين والدولة في عصر الحكم الربضي»، دراسات العلوم الإنسانية الاجتماعية (الجامعة الأردنية) م ٣٦، العدد ٣ لعام ٢٠٠٩م) وكذلك سوء وضع المولدين كطبقة اجتماعية كبيرة. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ـ مؤسسة الثقافة الجامعية د.ت، ١٣٠.

وكان من نتائجها هجرة جماعية من الأندلس إلي فاس بالمغرب الأقصى والإسكندرية ضمت محاربين وبحارة خرجوا علي متن عدد من مراكب للقبائل العربية بالأندلس قد يصل عددها إلى أربعين مركبًا تقريبًا ، لذلك يقدر أحد الدارسين النابهين[1] عدد الأندلسيين الذين نزلوا الإسكندرية من أربعة آلاف إلي خمسة آلاف رجل تقريبًا على أساسٍ أنَّ مُتوسِّطَ ما يحمله المركب مائة شخص تقريبًا ، ناهيك عمن نزلوا فاس ؛ ممَّا يُدلِّلُ على التَّجريفِ الذي حدث للبنية الاجتماعية ، وكذلك للقوى البحرية الخاصة في الأندلس.

عاود البحريون الأندلسيون نشاطهم بقوة في المنطقة منذ سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م ، حيثُ تعكسُ حوليّاتُ القديس برتن Annals of ST-Bertin تواجدهم الدائم بأعداد كبيرة علي السواحل الفرنجية ، وتصفهم بالقراصنة[2] ، ذلك بسببِ عقدِ اتِّفاقِ سلامٍ بين حكومة قرطبة وبين جزر البليار مما سهل مرور مراكب المسلمين في المنطقة[3] ، ومِنْ ثَمَّ تمكَّن المسلمون من الوصول شمالاً إلى خليج ليون بأمان[4] ، وتوردُ الحوليات في أحداث سنة ٢٢٤هـ/٨٣٨م هجوم أسطول للمسلمين قادم من طركونة على مرسيليا[5] بدعم من جزر البليار[6] وخرَّبوها وسبُّوا الرَّاهبات ، وأسروا رجال الدين وغيرهم من العامَّةِ ، ونهبُوا ثروات كنائس المسيح[7].

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور ، محافظة الإسكندرية ، ١٩٦٣م ، ٢٦٨-٢٦٩؛ ويري كروجر أن عددهم عندما وصلوا إلي كريت يصل إلي ١٠٠٠٠.

H. KUEGER, *The Italian Cities and Arabs before 1095*, p.103.

(٢) *Annals of ST-* Bertin, ninth-century histories, volume 1, Translated and annotated by Janet L. Nelson, Manchester University 1981, year 838, p.59.

(٣) ابن حيان : المقتبس ٢: ١٤٥.

(٤) J. PRYOR, *«Geography, and War»*,p.91.

(٥) F. GANSHOF, «notes sur les ports de provence», p.32.

(٦) لويس : القوي البحرية ٢٣٠.

(٧) ANNALS of ST-BERTIN, p.59.

يرجع هذا النجاحُ الذِي أحرزه البحريون الأندلسيون إلي عدة عوامل منها وفاة شارلمان سنة ٨١٤م، وضعف مملكة الفرنجة من بعده، خاصَّةً أنَّ خليفتة ابنه لويس التقي (٨١٤-٨٤٠م) لم يكن بكفاءة والده[١]، بعدما قسم الامبراطورية بين أبنائه الثلاثة: لوثر وبيبين ولويس، وبعد هذا التَّقسيم تزوَّجَ وأُنجبَ شارل، فألزمته زوجته بإعادةِ النَّظرِ في تقسيم الإمبراطورية ليحصلَ ولدها علي حقوقه مثل أخوته؛ ممَّا أدَّى إلى اندلاع الحرب بين الإخوة، وبينهم وبين والدهم، ولم تهدأ إلا بعد وفاة أخيهم بيبين سنة ٨٣٨م، ثم والدهم سنة ٨٤٠م، فانحصر الخلاف بين الثلاثة الباقين[٢]، وانتهى الأمرُ إلى تقسيم الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة بموجب معاهدة فيردن Verdun سنة ٢٢٩هـ/٨٤٣م[٣]، فقد أصابتهم لعنة الأدواق والكونتات في الاستئثار بالسلطة والثروة، ومع غروب شمس القرن التاسع تحوَّل الملوك الكارولنجيون إلى نكراتٍ[٤].

واغتنم المسلمون حالة الفوضى والاضطراب العامِّ الناتج عن وفاة الإمبراطور لويس التقي سنة ٢٢٦هـ/٨٤٠م ودخلوا بمراكبهم إلى بروفانس عن طريق مصبِّ نهرِ الرُّون[٥]، ويرصد ليو تبراند ما حاق بالمنطقة من اضطرابات والتي ساعدت

---

(١) نورمان: التاريخ الوسيط ٢: ٢٦٨.

(٢) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، الإسكندرية - مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٨١م، ٢٦.

(٣) ANNALES DE SAINT-BERTIN, *événements* 843، تم تقسيم الإمبراطورية الكارلونجية إلي ثلاث من الورثة، من اليسار تشارلز(شارل الأصلع) الذي تحصل علي الجزء الأكبر مما يطلق عليه فرنسا أو مملكة الفرنجة الغربية، ولويس مملكة الفرنجة الشرقية ألمانيا الحالية، ولوثر حصل علي إيطاليا وشريط ضيق طويل من الممتلكات بين الواقعة تحت سيادة أخوته، راجع، E. SEMPLE, «The Barrier Boundary of the Mediterranean Basin», p.58.

(٤) نورمان: التاريخ الوسيط ٢: ٢٩٤.

(٥) رينو: الفتوحات، ١٣٨.

المسلمين في توطيد سلطانهم بقوله : «في هذه الأثناء كان ينتاب سكان البروفانس حالة من الانغلاق والتحاسد والغيرة المتبادلة ، حيث أدت إلي تقطيع رقاب بعضهم البعض ونهب ثروات البعض الآخر ، وتبادل كل أنواع الأذى التي يمكن تصورها ؛ لذلك فصيل واحد كان غير قادر بنفسه في ظل ظاهرة الاستياء المتبادلة والغيرة علي الدعوة للنجدة من المسلمين سالفي الذكر ، والرجال الذين كانوا أشد مكرا ودهاء في انسجامهم مع بعضهم البعض (المسلمين) في القضاء علي جيرانهم ، لم يكتفوا بالقتل فقط وإنما حولوا الأرض الخصبة إلي صحراء ، لكن دعنا نري ماذا فعل بهم حسدهم»[١].

يشرح ليو تبراند الواقع في المنطقة الذي أدَّى نمو طبقة أرستقراطية جديدة في الأقاليم سعت إلى نوعٍ من الاستقلالِ السياسي ؛ فالنبلاء الذين كانوا يتولون وظيفة دوق (الموظف العسكري المحلي) ووظيفة كونت (ممثل الملك المحلي في شئون القانون والمالية) رسَّخُوا جذورهم في المجتمع المحلي وحوَّلوا ألقابهم وضياعهم الملكية إلي أملاك وراثية ؛ ممَّا تسبَّبَ في تدهور السلطة الكارولنجية في القرن التاسع الميلادي[٢] ، وظهرت ممالكُ مُستقلةٌ مثل مملكة برجنديا سنة ٨٨٧م التي تحكمت في بوابة الممرات الشمالية وطريق الألب الساحلي إلى إيطاليا ممَّا أعطاها وزنًا في الوضع السياسي في غرب أوربا ، وظلَّت قادرة علي الحفاظ علي استقلالها حتي ١٠٣٢م عندما أصبحت إقطاعية في التاج الألماني[٣].

تطورت هجمات البحريين بعد هذا التقسيم ووصلت مراكبهم غرب إيطاليا في

---

(١) LIUDPRAND, *the work of Liudprand of Cremona,* translated by F. A. WRIGHT, London 1930, p.34.

(٢) نورمان : التاريخ الوسيط ٢: ٢٦٨.

(٣) E. SEMPLE, «*The Barrier Boundary Of The Mediterranean Basin*», p.59.

٢٧ أغسطس ٨٤٦م/٢٣٢هـ[(١)]، وتكشف حوليات القديس برتن[(٢)] عن تعاون بين البحريين المغاربة (المور) وبين البحريين الأندلسيين Saracens في هجومهم علي روما سنة ٢٣٢هـ/٨٤٦م؛ حيث دخلوا نهر التيبر في غرب إيطاليا ووصلوا إلي روما سويا فيقول «خربوا كاتدرائية القديس بطرس وحملوا منها كل الحلي والكنوز، ثم احتلوا موقعا حصينا يبعد عن روما ١٠٠ ميل»، لكن ألمت عاصفة بمجموعة الأندلسيين العائدين من غزو روما وأغرقتهم وتم إرجاع بعض الذخائر والكنوز إلي كنيسة القديس بطرس، وفي نفس العام أستولي المسلمون (الأندلسيون) والمغاربة علي بنفنتم أحدي المدن الإيطالية، هذه التعاون بين الأندلسيين ومغاربة إفريقية ليس بجديد فقد تم قبل ذلك في فتح صقلية.

يتحدث القديس برتن في أحداث سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م عن السفارة التي أرسلها عبد الرحمن الأوسط إلي تشارلز (شارل الأصلع) لتأكيد السلام والتحالف، حيث قابل الأخير مبعوثي الأوسط بمراسم مناسبة ثُمَّ ودَّعهم، ويُفهم منها أنَّ هناك تبادل للسفارات قبل ذلك التاريخ ألمح برتن إلى الشكوى من اليهود والمسلمين الذين يحولون المسيحيين في أسبانيا عن معتقداتهم[(٣)]، ويبدو أنَّ الشكوى من مناكفات البحريين الأندلسيين أيضًا كانت ضمن أعمال هذه السفارة باعتبارهم من رعاياه، والغريب أنه لم يردْ ذكر لهذه السفارة عند ابن حيان في أحداث ٢٣٢-٢٣٤هـ أو عند غيره من الكتاب المسلمين، وفي المُقابل وجدت العلاقات الدبلوماسية مع

---

(١) *The Annals of Fulda: Ninth-century Histories,* Translated by Timothy Reuter, Manchester University 1992, p.26.

(٢) *Annals of ST- Bertin,* p.65.

(٣) *Annales de Saint-Bertin. - Annales de Metz (840-868)* dans collection Des memoires (A l, Histoire De France, M. Guizot, Paris 1824, 847 événements, Annals of ST- Bertin, p.65.

تيوفلس الأمبراطور البيزنطي صداها عن ابن حيان في احداث ٢٢٥هـ/٨٤٠م حيث نشر ردَّ الأوسط علي تيوفل بخصوص البحريين الأندلسيين الذين احتلُّوا جزيرة كريت التابعة للدولة البيزنطية ، ويبدو أنَّ ذلك راجعٌ إلى أنَّ سفارة الأوسط إلى شارل الأصلع كانت سريَّةً ، ولم يُكشفْ النِّقابُ عنها في قرطبة ، لكنها من المؤكّدِ لم تُؤثِّرْ على غزواتِ البحريين للساحل الفرنسي ، خاصَّةً أنَّ برتن نفسه يؤكد علي استمرار الغزوات في حوليات سنة ٨٤٩م.

تلقَّى شارل الأصلع اللطمات من المسلمين والنورمانديين علي السَّواءِ ، وتناوبا البر والبحر مستغلين الأوضاع الداخلية في فرنسا ، حيث هاجم البحريون الأندلسيون آرل سنة ٢٣٦هـ/٨٥٠م ، ويصف برتن المهاجمين بأنهم مغاربة Les Maures (بربر) ويبدو أنه تحقَّق هذه المرَّة من هوية المهاجمين الذين يعودون إلى أصول مغربية قادمين من الأندلس ، هذه المدينة كان النورمنديون يهاجمونها من البر والمسلمين من البحر[١] ، ومن ناحية أخرى تقدَّم النورمان واجتازوا جبل طارق ، واستولوا علي مدينة أربونة سنة ٨٥٩م[٢] ، ثُمَّ اتَّجهوا إلى نهر الرون ثم إلى بلنسية ، ومنها تَمَّ طردُهم إلى عرض البحر.

ومنذ ذلك التاريخ ,كانت إقامة المسلمين في منطقة دلتا الرون شبه دائمة واتَّخذوا من جزيرة كاماراج (camarague) التي تقع جنوب آرل مقرًّا لهم[٣] ، وتقدموا بعيدًا عن الساحل حتى مدينة ماجلون المندثرة ، حيث عُثر هناك على بعض الآثار التي تُؤكِّدُ وصولهم المدينة ؛ ممَّا اضطر شارل الأصلع على توقيعِ صُلْحِ

---

(١) *Annales De Saint-Bertin,* événements, p.850.

(٢) محمدا مرسي الشيخ : دولة الفرنجة ١٨٨.

(٣) حسين مؤنس: المسلمون في حوض البحر المتوسط ١٢٩؛ (F. Ganshof, «notes sur les ports de provence», p.32.

مُهينٍ مع البحريين المسلمين عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م أتاح لسكان هذه المنطقة من فرنسا بعض الرَّاحةِ من غاراتهم[١].

اعتمد دير سانت سيزر Saint-Césaire وفق حوليات برتن في سنة ٨٦٩م على جزيرة كماراج كميناء له في معظم احتياجاته ؛ فبعد أنْ هاجم المسلمون كماراج توغَّلوا فيها وهاجمُوا الدَّير ؛ فتصدَّى لهم رولاند رئيس أساقفة آرل ، وتقول الحولية أنَّ المسلمين اشتبكوا معه «بتهوُّرٍ وقُتِلَ ثلاثمائة من أنصار رولاند ، واعْتُقِلَ الأسقُفُ ، واقتيد إلى مراكب المسلمين مُكبَّلًا بالسلاسل ، وطالب المسلمون فديةً مقدارها مائة وخمسون جنيها من الفضة ، ومائة وخمسون من المعاطف ، ومائة وخمسون من السيوف الكبيرة ، ومائة وخمسون من العبيد ، رغم أنَّ الأسقف وافته المنية على مراكبهم في ١٩ سبتمبر ، وعلى الفور تمَّ تجميعُ الفدية ، وبعد استلامها أوصلوه إلى الشاطيء وألبسوه ثيابه الكنسية ، وعند استلامه تحدَّث إليه أتباعه فوجدوه فارق الحياة ؛ فحملوه بحزنٍ كبيرٍ ، ودفن في ٢٢ سبتمبر في قبره الذي كان قد أعدَّه بنفسه»[٢].

ومن خلال كميات الفدية يتَّضح أنَّ عدد المسلمين في هذه المعركة لم يزدْ عن مائة وخمسين فردًا ، استطاعوا قتل هذا العدد الذي يبلغ ضعفهم ، بخلافِ مَنْ فرَّ من المعركةِ ، مع أنَّهم في موقع الهجوم ، وهذا يُعبِّرُ عن حالة الانهزامية التي انتابت الفرنجة في ذلك الوقت ، كما تعبِّر الفديةُ عن ثروة الأقليم وترف السُّكَّان ؛ فقد غَدَتْ مُقاطعات بروفانس وأربونة وقتئذٍ من أغنى المناطق في جنوب فرنسا[٣] ،

---

(١) لويس : القوي البحرية ، ٢٣٠.

(٢) Annales de Saint-Bertin, *événements*, p. 896؛ يري لويس أن هناك تضارب وخلط بين قراصنة المسلمين والفايكنج وسيطرتهم علي جزيرة كماراج لكن برتن يورد حادثة أسر الأسقف رولان في أحداث سنة ٨٦٩م أما لويس فينسبها إلي سنة ٨٦٠م راجع ، لويس : القوي البحرية ، ٢٣٠، ٢٨١.

(٣) محمد عباسة : «العلاقات الاجتماعية بين العرب والفرنجة وتأثيرها علي الأدب والفكر» ، مجلة=

وكذلك تعبر عن قيمة الأسير رولاند لدي أتباعه، حيث كان لرجل الدين في العصور الوسطى قيمة كبيرة يبذل من أجلها المال، كما نتعرف من الحولية علي عدد تقريبي لسفن المسلمين من خلال أعدادهم، وأعداد العبيد الذين حملوهم معهم، حيث وصلت أعدادهم إلى ٣٠٠ شخص، فإذا افترضنا أنَّ المركب الواحد من مراكبهم كانت تستوعب ٥٠ فردًا فإن عدد مراكبهم كان لا يزيد عن ستة.

أوضحت الحولية أيضا قيمة وأهمية العبيد في المنطقة[١]، فقد كانت تجارة العبيد من أهم تجارات العصور الوسطى، فإذا كانت الفدية من الأموال والسيوف والمعاطف تعبر عن منتجات المنطقة وتجارتها، فإنَّ الفدية من العبيد تعبر عن أرستقراطية المنطقة ورواج هذه التجارة فيها، هذا بالنسبة للفرنجة، أمَّا بالنسبة للمسلمين فكان من أولويات الغزوات الحصول علي العبيد من الشبان وبيعهم في الأندلس؛ لكونهم يحظُون بشهرة خاصة عند الحكام، لاستخدام في الخدمة الشخصية، ويمكن الاعتماد عليهم في حراسة البلاط والحاكم، وفي الحروب المختلفة[٢]، ويبدو أنَّ ذلك راجعٌ إلى خوف الحُكَّامِ من دسائس بني جلدتهم، وبالتَّالي احتمى بالمُستضعفين الذين ليس لهم أيُّ ظهيرٍ إلا ولي النِّعمِ.

تخلَّى المسلمون عن قاعدتهم في كاماراج في نهاية القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، وتحوَّلَ اهتمامهم ناحية السواحل الجنوبية الشرقية للفرنجة وبروفانس في طريقهم لفراكسينتوم، وأصبحوا أكثر نشاطًا في غربي المتوسط منذ منتصف القرن التاسع الميلادي إلى حوالي نصف القرن العاشر الميلادي، ساعدهم علي ذلك سوء حالة الدفاعات البحرية الكارولونجية بعد انقسام الإمبراطورية على أثر الحرب الأهلية في القرن التاسع الميلادي، كما سبق القول؛ ممَّا ساعد

=حوليات التراث، العدد ٣ (الجزائر ٢٠٠٥م)، ١٠.

(١) رينو: الفتوحات، ١٤٨.

(٢) M. Wenner, «*Arab-Muslim*», p.63.

الأندلسيون في إثبات وجودهم في المنطقة(١).

أدَّى تفاقُمُ الأوضاع السياسية في مملكة الفرنجة وزيادة الاضطراب بسبب الصراع علي السلطة إلى تهيئةِ الظروف المناسبة للبحريين الأندلسيون للعمل بحريَّةٍ علي سواحلها والاستقرار في فراكسنيتوم؛ فبعد وفاة شارل الأصلع سنة ٨٨٨م اشتعل الصراع بين شارل البسيط ممثل الأسرة الكارلونجية وأودو كونت باريس وامتدت حتى وفاة أودو سنة ٨٩٨م(٢)، وخلال تلك الفترة أعلن ثائر يدعي بوزو Boso في الجنوب الخروج عن السلطة الفرنجية، وأعلن استقلاله سنة ٨٧٩م، وغلب علي ولا يتي دوفنيه وبروفانس ولقب نفسه بملك آرل، وتصدي له بعض الطامعين في السلطة في غاليسيا واندلعت بينهم حروب أهلية في مستهل العقد الأخير من القرن التاسع الميلادي(٣).

عزَّ على البابوية فُقْدَانُ مناطق حيوية من أوربا بمواردها الطبيعية لصالح المسلمين، حيث قام البابا يوحنا الثامن بداية مايو ٨٧٨م/٢٦٥هـ مع عددٍ من حاشيته برحلة من جنوة إلي آرل علَي متنِ ثلاثِ مراكبَ سريعةٍ من مراكبِ مدينةِ نابلي الإيطالية، حيثُ رَسَتْ مراكبه في ١١ مايو في ميناء آرل، وطلب الدعم من الحكام الكارلونجيين ضد المسلمين وأعداءه في الشمال الإيطالي، ونبَّههم إلي خطر تفاقم ظاهرة غزو البحريين المسلمين وتطورها من مرحلة الكرِّ والفرِّ إلى مرحلةِ الاستقرارِ(٤)، وتحوُّلهم من قراصنة حسب وجهة النظر الأوربية إلى مُحتلِّين.

---

(١) M. BALLAN, *«Fraxinetum»*, p.49

(٢) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة ١٨٩.

(٣) المرجع نفسه، ١٨٧-١٨٨.

(٤) F. GANSHOF, *«Notes sur les ports de provence»*, p.33.

* **اَلْقَرْصَنَةُ وَالجِهَادُ**

بدهيٌّ أنْ نُشيرَ باختصار إلى التَّعريفِ بكلمةِ قَرْصنَةٍ[١]، فهناك نوعان من القرصنة، **الأول**: يُسمَّي قرصنة خاصَّة، والثاني: يُطلق عليه قرصنة رسمية. أمَّا النوع الأول القرصنة الخاصة أو القرصنة الحرة، فهي ما يُعبَّر عنها بالفعل (Pirate) الإنجليزي، والاسم منها (Piracy)، والكلمة مُشتقَّة من الإسم اللاتيني (Pirata) ويعني قرصانًا، لكنها تعودَ إلي أصل يوناني، وتعني: الهجوم أو محاولة الاعتداء علي السُّفن التِّجارية، وظل هذا الاسم ملتصقا بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة خلال العصور الوسطي ليدلل علي السَّلب والأسر من أي سفن تُصادف القُرصان، بصرف النظر عن نوع السفينة، وجنسية مَنْ علي متنها ودينه[٢].

تصفُ المصادر الفقهية الإسلامية مَنْ يقوم بأعمال القرصنة الخاصة أو الحرة بلصوص البحر[٣]، وكذلك بالقطاع[٤]، أمَّا المصادر التاريخية فتعتبرهم مُجاهدين[٥]، ويعرِّفُها

(١) كلمة قرصان معربة عن الكلمة الإيطالية carsale، راجع، New Edition, Leiden, The Encyclopedia of Islam, (502)

(٢) حيث تمَّ استخدامها في اللغة اليونانية قبل القرن الرابع أو القرن الثالث ق.م *The Encyclopedia of Islam,* 5 p.502.

(٣) (الونشريسي) أحمد بن يحيى، المتوفى ٩١٤هـ/١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب، ٨: ٣٠٢، أخرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٨١م.

(٤) في ترجمة لولد الإمام سحنون محمد ت٢٥٦هـ/٨٦٩م الذي كان ينقطع للعبادة وللحرس علي المسلين في قصر الطوب يقول الراوي: «فنزلت قطاع الروم بساحل ذلك البحر»، راجع، المالكي (أبا بكر عبد الله بن محمد، المتوفى ٥٢٣هـ/١١٢٨م): رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٩٤م، ١: ١٤٦.

(٥) راجع: ابن عذاري في حديثه عن غزو صقلية، البيان المغرب ١: ١٠٤.

أحدُ المستشرقين[١] بأنَّها مجموعة فوضويَّة خارجة علي القانون تعتدي علي الملاحة، وتستولي علي التجارة البحرية، وتبيعها بأسعار دون سعرها الحقيقي. وبالتَّالي فإنَّ طبيعة عمل القراصنة في هذا النوع من القرصنة (Piracy) هو اعتراضُ مجموعَةٍ من المُغامرين السُّفنَ التِّجاريَّةَ أو الهجوم علي السواحل يقودهم حلم الثراء السريع، وتكون السفن والسواحل كافة عُرضة لهجماتهم

وغاراتهم الخاطفة، وغاية هدفهم هو الغنيمة علي حساب الضَّرر العام[٢].

ويطلق علي النوع الثاني من القرصنة: القرصنة الرَّسمية (Corsair) بالإنجليزية، (Corsaire) بالفرنسية، وينسب قدماء المؤرخين هذا اللفظ إلي اسم جزيرة كورسيكا (Corse)؛ لأنَّ سُكانها اشتهروا بالاستيلاء علي ممتلكات غيرهم، ويري آخر[٣] أنَّ أصل هذه الكلمة يعود إلي الكلمة الإسبانية (corsrio)، وتعني كُلَّ عملٍ خاصٍّ يضرُّ بسفن العدو التجارية مع تغاضٍ واضحٍ من السُّلطات. وأيًّا ما كان أصل الكلمة فإنَّ مصطلح (Corsair) يُطلق علي المتطوِّع البحري العسكري، الذي يضيق علي الملاحة التجارية للخصوم، ومن ثم يُنظر إليه كجندي يخدم مصالح السُّلطة التي يأتمر بأمرها، ويحافظ علي ديمومة الصِّراع بديلًا عن القوات النِّظامية.

وبالتالي فإنَّ القرصنة من هذا النوع مُرخَّصة وتحظي بالدَّعم والتَّأييد من السلطات السياسية التي كانت تُقدِّم لها التسهيلات مقابل جزء من الأرباح. وأيًّا ما كانت قرصنة خاصة أو رسمية فالنتيجة واحدة، لكن يبقي أن نشير إلي أنَّ مصطلح القرصنة الخاصة (Pirate) يعود في أصله إلي شرقي البحر المتوسط، وأمَّا

---

(١) E. SEMPLE, «Pirate coasts of the Mediterranean sea», The Geographical Review 11, (1916) p.134.

(٢) حسن أميلي: «مسألة الجهاد البحري بين القرصنة ولصوصية البحر»، البحر في تاريخ المغرب، جامعة الحسن الثاني - المحمدية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات رقم ٧، ١١٤.

(٣) لويس: القوي البحرية ٢٤١.

مصطلح القرصنة الرسمية (Corsair) فيعود إلي غربيه ، والأخير يدلِّلُ علي تطوّر هذه المهنة بحيث أصبحت بإشراف السُّلطات الرسمية[١] ، حيث ظهر هذا النظام في إنجلترا منذ وقت مبكر إبان حكم الملك ألفرد العظيم سنة ٨٧٧م ، الذي عاني كثيرا من النورمنديين ، وكان يطلق لفظ القراصنة علي المقاتلين البحريين الذين يقع عليهم عبء حماية الطرق البحرية التي ترتادها البحرية الانجليزية دون أي تحقير لهذه الوظيفة باعتبار أصحابها يُقدِّمُون خدمةً جليلةً لمصلحة الدولة[٢].

ويبدو أنَّ الصوائف التي قام بها البحريون الأندلسيون علي سواحل الفرنجة تنتمي إلي هذا النوع فكان قراصنة فراكسنتيوم بحسب رأي بروفنسال[٣] يلقون التشجيع المعنوي من قبل الحكومة الأموية ، كما أنَّ الإمارات البحرية المسيحية في العصور الوسطي سلكت نفس المسلك من رعاياها الذين كرّسوا حياتهم للأعمال القرصنة بمعنى أنَّهم لاقوا تشجيعا حكوميًّا.

ويري رينو[٤] أن الحرب البحرية لم تكن تعترف لأيِّ شيءٍ بالقَدَاسَةِ ؛ فكُلُّ شخصٍ يستطيع حمل السلاح يُؤْسَرُ ، والنساء والأطفال يخضعون للعبودية ، ولم يكن المسلمون يبقون إلا علي الشيوخ والمرضي الذين لا يستطيعون المقاومة ولا يفيدون بشيء ، ولم يكن ذلك وقفًا على المسلمين فقط ، بل ظلَّ النورمانديون يُرَوِّعُون شواطيء الفرنجة في كُلِّ عامٍ تقريبًا علي عهد لويس التقي[٥] ، وتبدو هنا

---

(١) عبد الرحمن بشير : القرصنة غربي المتوسط ٢٠.

(٢) B. DICK, *Framing Piracy: Restitution at Sea in the later middle Ages,* A Thesis submitted in partial fulfilment of the requirements for the degree of, Ph.D, University of Glasgow, Department of History, 2010, p.13-14.

(٣) ليفي بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ٤٠٩.

(٤) رينو : الفتوحات ١٢٤-١٢٥.

(٥) محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة ٢٤.

إشكاليةٌ في تطبيقِ هذا المصطلح علي المسلمين في فراكسنيتوم، كونهم قاموا بأعمالهم بالبرِ، وليس في البحرِ، فالمصطلح أُطلق بالجملة من جانب الحوليات على كُلِّ مَنْ رَكِبَ البحرَ في اتِّجاهِ ساحلِ الفرنجَةِ

فراكسينتوم (Fraxinetum)

تُعدُّ فراكسينتوم من أهمِّ مراكز المسلمين في جنوب فرنسا التي ظلَّت حافلةً بالأحداث التاريخية لمدَّةٍ تزيدُ عن ثمانين عامًا، وينفردُ الأسقف ليو تبراند[١] برواية هبوط المسلمين علي ساحل خليج سان تروبيز في البروفانس جنوب فرنسا سنة ٨٨٩م، وتتحدث الرواية اللاتينية عن مجموعةٍ من القراصنةِ المسلمين القادمين من الأندلس علي ظهر مركبٍ صغيرٍ لا يتجاوزُ عُددهم عشرين شخصًا اضطرتهم الرياح العكسية عُنْوةً إلى الجنوح إلى خليج سان تروبيز، ولمَّا وصل المسلمون إلى القمم الجبلية التي تشرف خليج سانت تروبيز من جهة الشمال، وتطلُّ على جبال الألب من جهةٍ أخرى، أدركوا على الفور مدى مُلائمة المنطقة لاستقرارهم؛ فالبحرُ مفتوحٌ أمامهم لتلقي الإمدادات والنَّجدات، بينما يُوفِّرُ لهم البرُ منفذًا إلى النَّواحي التي يزمعون الإغارة عليها، أمَّا الغابةُ فتصلحُ ملجًا لهم عند الاضطرار[٢].

---

(١) قام الأسقف بسفارة إلي القسطنطينية مبعوثا من أوتو الكبير ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (٩٦٢-٩٧٣م) إلي الإمبراطور نقفور فوقاس الثاني (٩٦٣-٩٦٩م) إمبراطور الدولة البيزنطية، ويرجع إلمامه بالمنطقة وتضاريسها كونه كان شماسا في الكنيسة خدم في بلاط هيو البروفنسالي (٩٢٦-٩٤٩م) وفي بلاط خليفته برنجار الثاني (٩٥٠-٩٦١م) قبل أن يترك الأخير وينتقل لخدمة أوتو الكبير، راجع، علي أحمد السيد: صفحة من العلاقات الدبلوماسية الألمانية البيزنطية، الإسكندرية ـ الدار المصرية ١٩٩٩م، ٧-٩.

(٢) رينو: الفتوحات ١٥٢-١٥٣.

و«نزل هؤلاء القراصنةُ في ليلة محزنة تحت جنح الظلام ودخلوا إلي قرية خلسةً، وقتلوا للأسف سُكَّانها المسيحيين، ثُمَّ استولوا بعد ذلك علي المكان وأصبح ملكًا لهم، واتَّخذوا من جبل المسلمين (سُمِّي بعد ذلك جبل المور) المجاور لهم حصنًا ضد هجمات من جيرانهم»[١]، ويرى أحد المستشرقين[٢] أنَّ استيطان المسلمين في هذه المنطقة كان حدثًا عارضًا جاء أثناء عاصفة عاتية فاجأت مجموعة صغيرة وأرغمتها علي النزول إلى الشاطئ، ولمحاولة فهم ذلك سوف نفرد دراسةً خاصَّةً عن فراكسينتوم ودورها في المنطقة خلال الفترة التي وقعت فيها تحت حكم المسلمين.

الخُلاصةُ

هي أنَّ التَّفوُّقَ البحريَّ للمُسلمين في شَمالِ غربِ المُتوسِّطِ جعلَ البحريين الأندلسيينَ يرتَادُونَ هذه المَناطِقَ بسهولَةٍ ويُسْرٍ، بسببِ انخفاضِ الدِّفاعَاتِ البحريَّةِ الإفرنجيَّةِ، وكذلك الفراغُ السُّكَّانيُّ، وكان هدفُهم دائمًا هو الكنائسُ والأديرةُ لِمَا تحويه من ذخائِرَ وكنوزٍ، ونجحتْ هذه الجمَاعَاتُ البحريَةُ فيما فشلتْ فيه الجيوشُ البريَّةُ، حيثُ احتلَّتْ الكثيرَ من المواقِعِ الاستراتيجيَّةِ على السَّاحِلِ الإفرنجيِّ، وأقامتْ كيانًا سياسيًّا على الساحل الجنوبي لفرنسا في إقليم البروفانس، ومنه انطلقت لإتمامِ عمليَّاتِهَا في التُّرابِ الفرنسي، والحديثُ عن شرعيَّةِ عمليَّاتِها التي اختلطَ فيها الجهادُ بالقرصنَةِ تَمَّ تفصيله في المتن، لكن ما يجبُ الإشارة إليه هو أنَّ طبيعَةَ المرحلةِ استوجبَتْ تلك العمليَّاتِ.

---

(١) LIUDPRAND, *The work of Liudprand,* p.33.

(٢) M. WENNER, *«The Arab-Muslim»,* p.62.